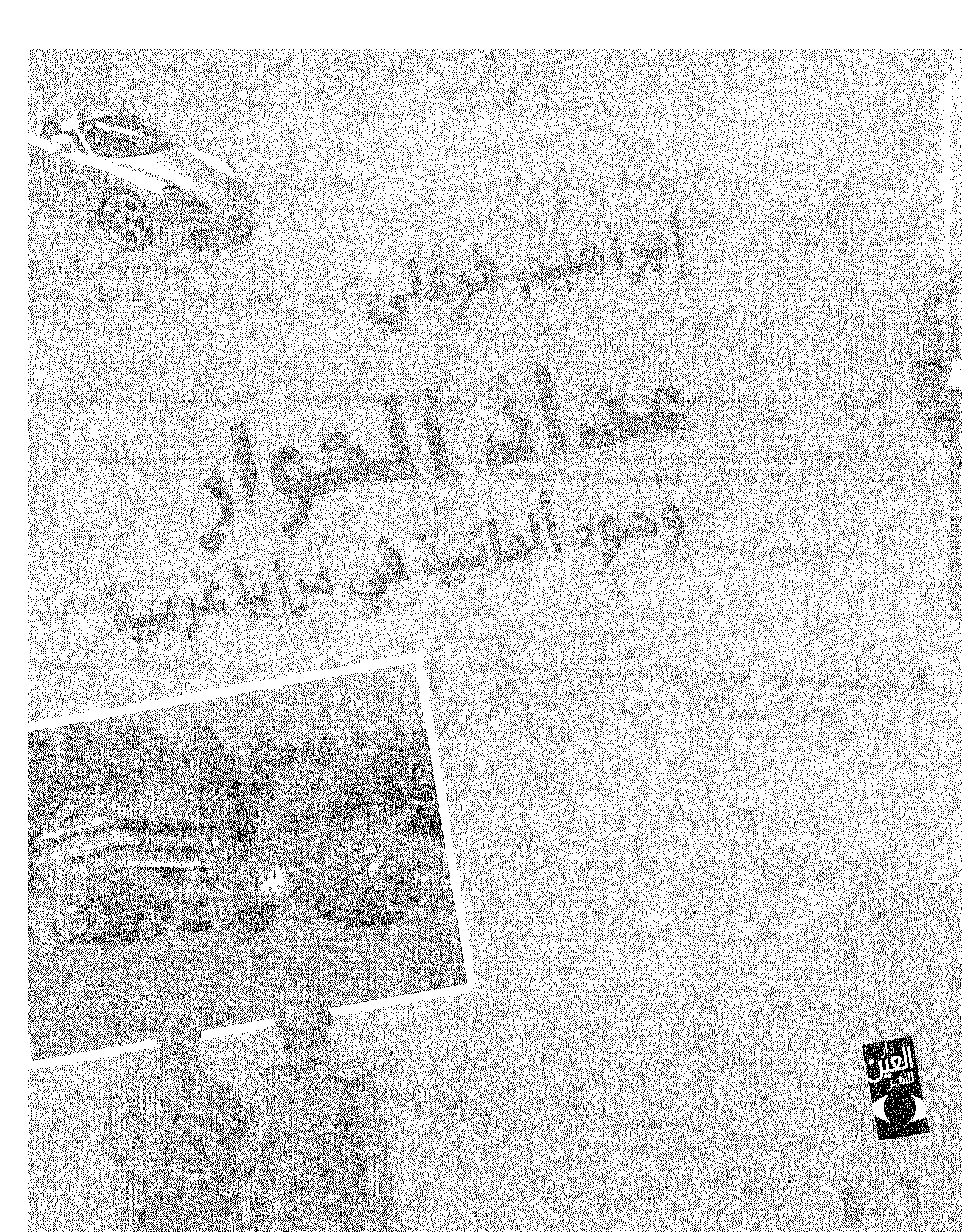

إبراهيم فرغلي
مداد الحوار
وجوه ألمانية في مرايا عربية
دار العين للنشر

مداد الحوار

وجوه ألمانية في مرايا عربية

مداد الحوار
وجوة ألمانية في مرايا عربية

إبراهيم فرغلي

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة
تليفون: ٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٤٥٨٠٩٥٥
E.mail: elainco2002@yahoo.com

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٨٠٥ / ٢٠٠٦

مداد الحوار

وجوه ألمانية في مرايا عربية

إبراهيم فرغلي

دار العين للنشر

WWW. Gothe.delmidad

رواة المـــدن هو أحد مشروعات المنتدى الألماني العـــربي عـــلى الإنـــترنت MIDAD وهو مشروع مشـــترك لمعـــاهد جوتة المتواجدة بمنطقة الشرق الأوســـط وشـــمال أفـــريقيا، كما أنه يحظى بدعم المؤسسة الثقافية الاتحادية بألمانيا.

هـــذا الكـــتاب هو محصلة لهذه التجربة التي كانت تقتضـــي تدويـــن اليوميـــات يوماً بيوم، لهذا كانت الكـــتابة تـــتروا‌ح بين العواطف الجياشة والتأملات الذهنية البحتة.

على سبيل التقديم

قبل أيام من موعد سفري إلى ألمانيا وفقا للبرنامج المعد سلفا من قبل معهد جوتة الذي رشحني للاشتراك في مشروع (رواة المدن) ، كنت أحاول استعادة الأيقونات التي أحتفظ بها في ذهني باعتبارها رموزا ترتبط باسم ألمانيا، لكني اكتشفت ، بمرور الوقت مدى غموض المجتمع الألماني وعدم معرفتي به؛ فلم تكن القائمة التي أعددتها تتضمن سوى عددا محدودا من الأيقونات أو الرموز، والتي قد يشترك فيها معي كثير ممن لم يسبق لهم زيارة ألمانيا.

ألمانيا.. بلاد الكاتب المرموق و الشاعر المتعاطف مع الحضارة الشرقية "جوتة" ، ومصانع السيارات العريقة التي تحتفظ بسمعة عالمية يصعب منافستها (مر سيدس). وهي بالتأكيد بلاد الفلاسفة الكبار الذين ساهموا في وضع أسس الفلسفة الحديثة من "هيجل" و "نيتشة" إلى "جودا مار" و "هابر ماس". ثم أنها ، أيضا ، موطن الكتاب الذين أدين لهم ، بشكل شخصي، بجزء لا يستهان به من تكويني الثقافي من أمثال "هرمان هسة" و "توماس مان" و "بر يخت " و "هاينريش بول" و" كرستا فولف"، ووصولا إلى جونتر جراس و غيرهم.

ولكنها أيضا بلد (هتلر)؛ الديكتاتور النازي الذي أشعل الحروب في أرجاء العالم ، و الذي تسبب في سحق ألمانيا وتقسيمها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وإصابة الألمان بعقدة ذنب تاريخية بسبب ممارسات هتلر العنصرية على امتداد الحقبة النازية.

ولعل هذا كله معروف للجميع و تمتلئ به كتب التاريخ. ولكن ماذا عن الألمان أنفسهم ؟ ما هي طبيعتهم ؟كيف تسير حياتهم اليومية؟ كيف يتعاملون مع بعضهم البعض ؟ وما هي القضايا الاجتماعية التي تشغلهم أو يعانون منها؟ كيف يقضون أوقات اللهو أم أنهم -كما يشاع- شعب جاد لا يعرف المرح؟! ثم ، وهذا سؤال جوهري ، كيف استطاعوا تحقيق المعجزة والتحول من بلد محطم ومسحوق بعد الحرب ،إلى هذا المارد الاقتصادي الذي يحسب له العالم ألف حساب؟!

كل هذه الأسئلة و غيرها كنت أطرحها على نفسي ولا أجد لها إجابة واضحة. فألمانيا ليس لها وجود حقيقي في حياتنا مثلما هو شأن الوجود الأمريكي مثلا ، والذي يحققه تعاطينا اليومي للأفلام والمسلسلات الدرامية الاجتماعية الأمريكية ، والتي تحقق لنا حدا أدنى من المعرفة بالمجتمع والشعب الأمريكي. ولعل هذا ما ينطبق أيضا على معرفتنا بالفرنسيين الذين نحفظ تاريخ ثورتهم الشهيرة ووقائعها وقادتها ، كما نعرف الكثير عن كتابها المشهورين في أرجاء العالم ونجوم السينما والأفلام التي أتاحت لنا التعرف على

طبيعة الحياة اليومية الفرنسية ومقاهيها وآثارها ومتاحفها الشهيرة. بل وحتى ثورة الشباب في عام ١٩٦٨ نكاد نختزلها في فرنسا ، رغم أنها كانت ثورة لها طابع عالمي ، وتشابهت أو تطابقت الكثير من مظاهرها في أرجاء أوروبا والولايات المتحدة على السواء.

لا زلت أذكر زيارتي الأولى لفرنسا قبل عشر سنوات ، وهي كانت زيارتي الأولى لأوروبا في نفس الوقت ؛ كنت مبهورا لوجودي في فرنسا ، منتشيا لتحقق أحد أحلامي الذي رافقني منذ الصبا ، بعد أن قرأت كتابا مصورا عن فرنسا جعلني أسعى لقراءة كل ما يتاح لي عنها سواء كان أدبا لكتاب فرنسيين أم كتب رحلات أو مذكرات من مروا أو استقروا بها.

وربما لذلك لم يكن لأي مما رأيته في تلك الزيارة تأثير مدهش أو مبهر على أي نحو ،فكل هذه الآثار والمتاحف والعلامات أعرفها بشكل جيد. بل و على العكس فقد أحبطني تماما اكتشافي أن باريس التي يطلق عليها اسم عاصمة النور بدت لي في أثناء الليل حزينة ، ولا أريد أن أقول موحشة إلى درجة موجعة ، كما أدهشني أنها تحافظ على طابعها المعماري التاريخي القديم ، وتفتقر إلى لمسات الحداثة التي كنت أتصور أنها تجاور المباني العتيقة ، ولكن خاب ظني، تماما كما حدث لي مع شارع

"الشانزلزيه" الذي كان أحد أشهر الشوارع ، لكن زيارتـه كانـت محبطة إلى حد بعيد .

أما في ألمانيا فقد كانت المسألة مختلفة تماما . استقبلت كـل شيء بشكل به قدر كبير من طزاجة الاكتشافات الأولى . كان كل ما أراه يبدو جديدا على عيني ، خاصة و أنني انطلقت من مطـار فرانكفورت إلى مدينة شتوتجارت ، وبالتالي لم تتح لي رؤية بعض ما يمتلك الشهرة الإعلامية من المعالم والآثار التي تمتلكها بـرلين على سبيل المثال ، بالإضافة إلى الخصوصية الشديدة التي تتمتـع بها شتوتجارت بين الغالبية العظمى من مدن ألمانيا ، على النحـو الذي وصفته في اليوميات التي نشرت على شبكة الإنترنت يومـا بيوم و التي تتضمنها فصول هذا الكتاب. ولعل هذا ما يفسر نبـرة الدهشة التي سيطرت على اليوميات.

لكن هذه الدهشة أيضا كان لها مبررات أخرى منها أنـه فـي مقابل معرفتي بالثقافة الفرنسية و المجتمع الفرنسي ، مثلي مثـل ملايين غيري من المنتمين للثقافة العربية ، فلم أكن أعرف عـن الألمان أكثر من غيري ممن لم يسبق لهم زيارتها، وأغلبها بعض الكليشهات الشائعة كما وضحت في اليوميات أو بعض المقـالات التي اختتمت بها فصول الكتاب ، بالإضافة إلى انبهاري بالطبيعة المدهشة في أرجاء ألمانيا.

كما أن هذه النبرة التي وصفها البعض بالانبهار لم تكن انبهارا بقدر ما أنها تعبير صادق عن دهشة الاكتشاف تماثل تماما نبـــرة الإعجاب أو الدهشة التي تناول بها المستشرقون نصوصا وصفوا بها مدننا وأماكن كانوا يطرقونها للمرة الأولى ، وكثير منها كانت أماكن أقل تمدنا وأكثر بدائية من المجتمعات التي ينتمـــون إليهـــا. فلست من أنصار البحث عن مواطن العطب والمثالب التي تتيح لي انتقادا سلبيا لحضارة غربية لا يختلف أحد على شـــواهد تقـــدمها لمجرد أن هذا يعني ضمنيا الإشارة إلى أو تركيز الضـــوء علــــى انتقاص أو عيب كما يفضل الكثير من الجمهور العربي أن يفعل ؛ لأنني أؤمن أن الحضارة المصرية العربية الإسلامية التي أنتمـــي إليها أكبر وأقوى من هذا كله. أفخر بانتمائي إليها كما أنني أمتلك من الثقة بالنفس وبهذه الحضارة ما يجعلني لا أخشى من التركيـــز على مواطن ضعفها ومثالبها في مواطن المقارنة مع بـــلاد أكثـــر تحضرا. . فدفن الرأس في الرمال كالنعام والخوف من مواجهـــة النفس ليس إلا تعبيرا مرضيا عن أزمة ثقة بالنفس، وعدم قـــدرة على مواجهة الحقائق والسلبيات.

أنبهر بالاختلاف والنظام والجمال والتحضر سواء كان في دولة خليجية أو بلد من دول العالم الثالث مثل الهند أو دولـــة أفريقيـــة، تماما كما قد أفعل في ألمانيا.. أنبهر بالاختلاف واحتـــرام حقـــوق

الإنسان في أي مكان لأنني صادق مع نفسي ولا ولم أدع يوما شيئا ولا أنفر من أحد قدر نفوري من المدعين.

والحقيقة أن هذه الطريقة في التفكير تعكس جزءا أساسيا من أزمتنا الراهنة ، وهي على ما يبدو إشكالية تتعلق بالسياق الثقافي الذي ننشأ فيه ، والذي يقوم على نوع من الثنائيات المتقابلة والمتناقضة والتي لا يمكن أن تلتقي أبدا ، ولعل نموذجها الأبرز هو ثنائية (الحلال – الحرام) التي يتكئ عليها ويحتكم لها قطاع لا يستهان به من الجمهور – وربما بعض النخب مع الأسف– ثم يعيد صياغتها بأشكال أخرى : وعلى سبيل المثال فقد دأبت العناصر الأكثر تطرفا من أعضاء الجماعات الإسلامية على وصف كل من يخالفها بالكفر ، والحكومة في موقفها من مطالب القوى الوطنية – على اختلاف توجهاتها– وضعت كلِ من لا يؤيدها ويدين لها بالولاء بشكل مطلق موضع العداء و التخوين. وقوى المعارضة في المقابل تبدو في نقدها للحكومة و كأن كل ما تفعله هذه الحكومة شرا خالصا . ولعل هذا ما يجعل من ثقافة الحوار في المجتمع المصري ، والعربي ربما ، عملة نادرة إن لم تكن معدومة .

وهناك الكثير من الشواهد على انعدام الحوار في الواقع..فيمكنك مثلا أن تتابع أي برنامج حواري مما تبثه أي قناة

فضائية عربية ، ستجد نفسك أمام مشاهد لما يمكن أن نسميه "مصارعة جدلية" – مع استثناءات طفيفة – حيث يعلو صوت الصراخ ، والعنف اللفظي ، والإحساس بأن هناك خصومة شخصية بين أطراف الحوار تمنع كل منهما أن يسمع شيئا من محاوره ، رغم أن المفترض هو نقاش حول قضية عامة . وقس على ذلك كثيرا مما تنشره بعض الصحف المستقلة وبعض كتاب الأعمدة المتشنجة، فما بالك بالنقاش بين أي طرفين من الجمهور العادي حين يناقشان أي مسألة خاصة .

بنفس هذا المنهج يمكن للأمر أن يصل إلى التوقعات المسبقة ، فعندما يذهب كاتب إلى بلد ما ويعود ليكتب عن هذه الرحلة فلا بد أن يكتب ما يحب الجمهور أن يسمعه أو يتوقعه، وإلا فأنه يصبح منبهرا بالغرب أو متمسحا فيه... الخ.

وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون مآل فكرة مثل حوار الحضارات ؟ كيف يمكن للعرب أن يجروا حوارا حضاريا يعكسون فيه حقيقة الحضارة التي ينتمون إليها بكل وجوهها المشرقة إذا كانوا يفتقدون أوليات الحوار مع بعضهم البعض ؟ خاصة وأن هذا الحوار لم يعد موضوعا للترف والاستهلاك المجاني بقدر ما أصبح ضرورة لا بديل لها .

ضرورة تفرضها مظاهر العولمة التي ، أيا كان الموقف منها، تحتاج للوقوف على أرضية الندية التي تحققها المعرفة بأسس وقواعد الحوار التي تقوم على الإيمان بالتعددية و قبول الآخر واحترام اختلافه. كما أن هذا الحوار قد أصبح ضروريا في ظل دوائر "الاشتباه " العالمي في كل ما يتعلق بالمجتمعات الإسلامية بسبب أعمال القتل والإرهاب التي تمارسها بعض القوى التي تربط أفعالها الدموية باسم الإسلام .

ولعل ما لفت انتباهي إلى غياب منهجية الحوار في الذهنية العربية هو بعض التفاصيل الصغيرة التي لاحظتها خلال وجودي في ألمانيا عبر عدة شواهد ؛ أولها ملاحظتي أن الوقت بين غروب الشمس وحلول الليل طويل نسبيا مقارنة بنفس هذه الفترة في مصر، فليس لدينا هذا الوسيط الزمني بين الليل والنهار لمثل كل هذا الوقت. كما لاحظت أن النوافذ هناك لها ثلاثة استخدامات ؛ فهي تفتح وتغلق، ثم هناك إمكانية ثالثة لنفس النافذة أن تفتح من الجزء العلوي منها فقط للتهوية. وحاولت أن أتتبع هذه الإمكانية الثالثة في شواهد أخرى وأدركت لاحقا أن مثل هذه الإمكانية هي نتيجة ثقافة تبحث دائما عن البعد الثالث للأشياء كمنهج تفكير بعيد كل البعد عن الثنائيات التي نعرفها نحن : الحلال والحرام.. الليل و النهار.. الظلام والنور .. الصواب والخطأ .. الملاك والشيطان ... إذا لم تكن معي فأنت ضدي بالضرورة .

وأدركت أن البحث عن الوجه الثالث للعملة أو لأي شيء هــو في الحقيقة جوهر التفكير العلمي ، الذي يحــتم وجــود الحــوار العقلاني ، وتقليب الأمور على كل أوجهها والبحث عن المنطــق الكامن خلف الأشياء ، والبحث عن الإمكانيـــة الثالثة التي غالبا ما تحقق فوائد وإمكانيات قد لا يكون من السهل اكتشافها وفقا للمنطق الثنائي . ولعل هذا أحد الأسباب المباشرة لتخلفنا في الإنتاج العلمي بشكل عام ، وربما في كثير من أوجه حياتنا العملية والاجتماعيـــة على حد سواء . كما أنه ، فيما يبدو ، أحد أسباب أو شواهد إخفاقنا في الحوار مع الغرب ، هذا الحوار الذي يحاول مشــروع " رواة المدن" أن يقدم به مفاتيح جديدة ومختلفة في محاولة جادة لفــتح الباب له ، وكشف القواعد الإنسانية المشتركة بين الشرق و الغرب لبحث إمكانيات توسيع قاعدة مثل هذا الحوار في المستقبل.

أما المشروع فهو أحد الأفكار التي ابتكرها ودعمها معهد جوتة بالتعاون مع بيوت الأدب في ألمانيا وقناة ARTE كشريك إعلامي وتم بمقتضاها اشتراك ستة من الكتاب الألمان بزيارة مدن عربية ، وستة من الكتاب العرب بزيارة مدن ألمانية على أن يقوم كل منهم بكتابة يومياته عن المدينة يوميا وتنشر بالعربية والألمانيـــة علـــى موقع المشروعذذ على شبكة الإنترنت يوميا ضمن مشروع أكبــر يعرف باسم (مداد).

وبالرغم من العدد الكبير من القراء الذين أقبلوا على قراءة هذه اليوميات على الإنترنت إلا أن نسبة إقبال القارئ الألماني كانــت أكبر بكثير مقارنة بنظيره العربي ، ربما بسبب اعتياد هذا القارئ على التعامل مع الكمبيوتر ، والقراءة على الشبكة الدولية بشــكل يفوق نسبة هذا القارئ في المنطقة العربية بعدة أضعاف وهو أحد دوافعي الأساسية لكتابة و نشر هذا الكتاب .

فكرت كثيرا في ترتيب فصول هذا الكتاب حتى استقر على هذا الشكل ، حيث فضلت أن ابدأ باليوميات المنشورة على الإنترنــت لأشرك القارئ في الجو العام للرحلة ، ثم أتبعتها ببعض اليوميات التي لم تتح لي فرصة كتابتها بشكلها النهائي في أثناء المشروع ؛ إما لضيق الوقت ، أو لعدم قدرتي على فهم الوقائع التــي لفتــت انتباهي آنذاك ، أو لأنني كنت قد اعتبرتها ملاحظـــات تخصـــني بشكل أو آخر. أو حتى بعض الخواطر المبهمة التي ألحت علـــى رأسي ورأيت أن هذا الكتاب هو أنسب مساحة لاحتضانها . وهي في النهاية تجربتي بكل بساطتها وعفويتها وبهجتها وبكل أشـــواق الحرية التي مارستها واستمتعت بها تماما في التجربة الألمانية.


اليوميات



لم أشعر أنني في ألمانيا إلا بعد أن احتوتني الطائرة الصغيرة التي بدأت على متنها الرحلة من مطار فرانكفورت إلى مطار شتوتجارت.

ففي مطار فرانكفورت شعرت بأنني في متاهة حقيقية لا نهاية لها .شعور بالتيه والضياع. لكنني حفزت إحساسي بالفردية الذي اكتسبته خلال السنوات الأخيرة التي عشتها في القاهرة ، وانطلقت مهرولا متتبعا الإشارات والعلامات حتى وجدت نفسي أخيرا – بعد رحلة اجتزت خلالها السلالم والمشايات المتحركة وبينها عربة صغيرة تشبه المترو – أمام مكتب تحويل الرحلات الذي كان بمثابة المنفذ إلى طائرة شتوتجارت .

أخبرتني السيدة التي تقف خلف "الكاونتر" أنهم سيبدءون إجراءات الدخول بعد عشر دقائق ، فتنفست الصعداء ؛ فهذا يعني أنني أهرول إلى المكان الصحيح ، بالإضافة إلى إمكانية تناول قدح القهوة الأول في ألمانيا ، وأن أدخن أول سيجارة منذ غادرت مطار القاهرة.

كان عليّ مقاومة الإحساس الطاغي بغربة المكان – ربما بسبب الهدوء غير المعتاد – بينما أتأمل النظافة والنظام المبهرين. وقبل أن أتوجه لاحظت جهاز كمبيوتر للاستخدام العـام . فكـرت أن أرسل لزوجتي رسالة إلكترونية ، لكنني تـرددت بسـبب ضـيق الوقت مؤجلا ذلك إلى ما بعد وصولي إلى شتوتجارت .

يقولون إن الانطباعات الأولى تدوم .. وأعتقد أن هذا ينطبـق على انطباعاتي الأولى عن شتوتجارت منذ وطئت قدماي الطائرة الصغيرة التي أقلتنا من فرانكفورت . فعلى عكس الرحلة الأولـى من القاهرة كان أغلب المسافرين على متن الطائرة ألمانا، وبـدوا وكأنهم يعرفون بعضهم بعضا وهو ما أكد إحساسي بالحميمية .

كما أن الانطباع الذي حاول بعض أصدقائي ترسيخه حول قلة نسبة الجمال بين الفتيات الألمانيات إجمالا بدا لي غير حقيقي على متن الطائرة! فالنسبة الغالبة من الإناث جميلات بشكل لافت والآن ومنذ وصلت إلى "شتوتجارت" وأنا أشـعر بتصـاعد الإحسـاس بالحميمية والجمال.

بالرغم من أن شتوتجارت هي المدينة التي تضم اثنين من أهم مصانع السيارات في العالم "بورش " و" مرسيدس" وهو مـا قـد يعطي الشعور بمدينة صناعية باردة ، لكن الأمر كان عكس ذلـك تماما .. إذ إن هناك دائما ذلك الشعور بالحميمية و الألفـة .. لـم

أستطع تفسيره حتى الآن.ربما بسبب الخضرة التي تفيض بها هذه المدينة أينما وجه الفرد نظره .. حيث توجد الأشجار الوارفة فـــي كل مكان ، بالإضافة ، إلى أن المدينة كلها تقع أعلى مجموعة من التلال الخضراء التي تكون حلقة واسعة ، بينما يقع مركز المدينة وأسواقها التجارية أسفل هذه الهضاب. أو ربما بسبب تشابه بعض الشوارع مع مثائل لها في الإسكندرية حيــث يفصـــل الشـــارعين المتعاكسين المحتويين للسيارات طريقا ثالث مخصص للترام بينما تتراص إلى يمين الطريق و يساره المباني ذات العمارة الكلاسيكية العتيقة.

تذكرت حوارا إلكترونيا مع أحد الصحفيين الألمان حين سألني عن دور الثقافة في تعايش المجتمعات فأخبرتـــه أن الإســـكندرية كانت تضم نحو ١٤ جنسية مختلفة أغلبها مـــن اليونـــانيين فـــي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي وأنهم، جميعا ، كانوا يعيشون في سلام كامل مع المسلمين المصـــريين مـــن مـــواطني الإسكندرية . فعقب موضحا أن نحو خمسة وعشرين بالمائة مـــن سكان شتوتجارت هم أيضا من جنسيات مختلفة مما يجعـــل منهـــا نموذجا لمدينة كوزموبوليتانية .. وهو ما سأحاول اختبـــاره فـــي الأيام المقبلة.

عندما حضرت "كورينا " (الموكلة بمرافقتي من قبل بيت الأدب بشتوتجارت) لاصطحابي للقاء السيد "فلوريان هولرر" مدير بيت الأدب كان علينا أن نهبط درجات السلم العتيقة العديدة من مدخل البيت الذي خصصه القائمون على المشروع لإقامتي، وهو بيت مخصص للفنانين الحاصلين على منح تفرغ لإنجاز مشروعاتهم الفنية ، ويستقر أعلى التلال أيضا في منطقة هادئة بامتياز .

رحلة الهبوط على درجات السلم الطويلة لهذا البيت في الصباح كانت أسهل كثيرا من رحلة الصعود عليها ليلة أمس؛ حيث كان علي أن أحمل على ظهري الحقيبة الثقيلة التي وضعت بها زوجتي "كل شيء"! تسبقني "كورينا" التي حملت عني بقية الحقائب الصغيرة .. محاطين بالأشجار الوارفة والظلام الدامس والهدوء القاتل لمن كان مثلي قادما من عاصمة الزحام والصخب .. والحديث عن الهدوء هنا يحتاج لمساحة أخرى!

واجهت "كورينا" بعض الصعوبات في الحصول على تذكرة من الجهاز الإلكتروني المجاور لمحطة الترام . وصل الترام وتوقف ، وانتهى ركابه من الصعود والهبوط.ولكن الحركة المتوترة لمرافقتي ، على ما يبدو ، جعلت السيدة التي تقود الترام تحرص على الانتظار حتى حدثت المعجزة وانتهت الآلة العجيبة من طباعة التذكرة .. فركضنا إلى الترام "السكندري الطابع" وشكرنا (السائقة)

بحميمية .. وهمست لي مرافقتي : لا بد أنها شاهدت صورتك في الصحيفة صباح اليوم!! وأغرقنا في الضحك (كانت صحيفة شتوتجارتر زايتونج قد نشرت مقالا عن المشروع وعني) .

اصطدمت مرة أخرى بالهدوء والنظافة الطاغيين وتذكرت حشود الجماهير المترقبة للصراع على ركوب المترو في القاهرة و بدأت أحكي لمرافقتي عن زحام القاهرة .. بينما يسير الترام العتيق سيرا هينا كأنما يؤكد رفق السيدة التي تقوده ، وحميمية هذه المدينة التي بدأت لتوي أولى رحلاتي إلى قلبها .. على أمل أن تبوح ببعض أسرارها.



قفزنا معا إلى غرفة خشبية ضيقة تمثل شكلا عتيقا وغير تقليدي للمصعد الذي يتحرك صعودا من جهة وهبوطا من الأخرى ،وعلى مستخدميه التزام الحذر وإتقان القفز بلا تردد في الموعد المناسب دخولا أو خروجا . نظرت إلى السيد "هولرر" مبتسما فـرد علـي بابتسامة أكثر اتساعا زادت من براءة ملامح وجهه موضحا أننـا بإمكاننا أن نلقي نظرة سريعة على بيت الأدب الذي يديره و يمثل الجهة التي تستضيفني هنا أيضا .

القفزة التالية نقلتنا معا من المصعد العتيق إلـى الطـابق الأول لتناول الغداء، وكشفت عن جانب من شخصية "فلوريان هـولرر" التي تجمع البساطة والعمق معا وهو ما ازدادت معرفتي به خلال الحديث المطول الذي جمع بيننا من أوضاع الثقافة في ألمانيا إلـى وضع شتوتجارت المميز في مجال النشر إلى السياسة والانتخابات المقبلة في منطقة الجنوب (ألمانيا تتكون من ١٦ مقاطعة أو ولاية بينها منطقة بادن- فيتمبرج وعاصمتها شتوتجارت).

على بعد خطوات قليلة من بيت الأدب تقع مقبرة تذكارية قديمة تضم مقابر بعض العائلات الألمانية التي تعود إلى القرن السابع عشر وبينها شخصيات شهيرة . لكن المذهل أنني وجدت مجموعة من مقابر اليهود .. فكيف نجت هذه المقابر من مذابح النازي ! عرفت لاحقا أن الفضل في ذلك يعود إلى (روبرت بوش)، وهو مؤسس إحدى كبرى شركات قطع غيار السيارات، الألماني الذي اشترى الأرض بدعوى احتياجه لها لبناء بعض التوسعات وتكفل بهدمها ثم وضع هياكل بناء من قبيل التمويه واستطاع بالفعل حماية المقابر.

كثيرا ما تمنيت زيارة مقابر الأقباط في مصر ، ولكن لم تتح لي هذه الفرصة غالبا لأنه لم يتسنى لي حضور جنازة . وفي بعض قصصي الأولى عبرت عن ولعي باجتياز عالم الأموات وارتياد المقابر .. لكن مقابر المسلمين في مصر بغرفها المتراصة لا تعطي نفس الانطباع الذي تولده المساحات المنبسطة الموجودة في مقابر الأقباط ، ولعل ذلك ما جعل بعض مخرجي أغنيات " الفيديو كليب " الحديثة التي تقترب من أحزان الفقد يلجئون للتصوير في مناطق تستدعي طقوس الجنازة في الأفلام الأمريكية..بحثا عن لمسة جمالية تعطي للموت ألوانا أقل قتامة من اللون الأسود ! ربما أن هذا ما يفسر سر ولعي بمقابر الأقباط .

في المقابر – أيا كان أهلها – أشعر بحالة من السلام النفسي تكاد تشبه ما تصفه الأدبيات عن الوجد الصوفي لدى المتصوفة.كأنما أقاوم الخوف من الموت بمواجهته مع ما يشبه اليقين بأنني مستعد له تماما مخلصا لفكرتي عن الضمير الإنساني بلا جنسية أو لون طائفي!! أتأمل عنف من يطلق عليهم "المتطرفين " يهودا كانوا أم مسلمين أو مسيحيين مروعا ومندهشا في آن واحد من الربط بين العنف والدين!!

كلما تحدثت مع أي شخص هنا عن مدى الاختلاف بين المباني القديمة و الحديثة إلا وترتسم على الوجوه ملامح حزن نبيل بينما يحكي لي أصحابها عن الدمار الذي لحق بشتوتجارت في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتسبب في اندثار تراث من العمارة الجميلة.

وبالرغم من ذلك فقد نجت من ذلك المصير المؤلم مجموعة كبيرة من هذه الأبنية تجاورها عمارات حديثة شيدت بعد انتهاء الحرب في عجلة وبلا مراعاة لأي اعتبار جمالي من أي نوع ، يفضح فقرها المعماري ثراء العمارة القديمة العريقة بطرزها المختلفة و فنون الزخرفة البديعة .

في المساء عدت إلى بيت الفنون – والذي تديره "السيدة أولشفسكي"– لحضور افتتاح معرض تصوير فوتوغرافي لفنانة

ألمانية هي "جيتا زيلر" ضم مجموعة من الصور حول موضوعات مثل الإجهاض (صور متتابعة لفتاة تتعرض للإجهاض في مستشفى بالبرازيل) والدعارة .. صور جميلة بها لمسة إنسانية حارة وعميقة . وصاحب المعرض قراءة من رواية لكاتبة شابة هي "ساندرا هوفمان" يدور موضوعها في أجواء قريبة الشبه من أجواء المعرض حيث تتعرض البطلة لحالة من المرض النفسي تجعلها تخشى تناول الطعام (من أنواع الفوبيا) ثم تتعرض للحمل ، وتعيش صراعا مضنيا بين إنقاذ الجنين الذي ينمو في أحشائها وخيالات وعيها التي تصور لها تناول الطعام وكأنه شبح الموت !

على العشاء في المطعم اليوناني القريب من بيت الفنون – كما أسميه – والذي دعتني إليه، بكرم بالغ، السيدة "أولشفسكي" دار حوار واسع حول الأدب الألماني الحديث مع "هوفمان" و"هولرر" وعن الصعوبات التي يواجهها هذا الجيل في النشر والترجمة ، وحتى الرواية التي حققت نجاحا بالغا لكاتبة شابة من برلين وتدعى "يوديت هرمان" لم تحقق نفس النجاح عندما ترجمت للإنجليزية – على الأقل حتى كتابة هذه اليوميات – وهو موضوع ذو شجون وذيول قد تستدعي العودة إليه لاحقا.



استيقظت مبكراً على ضوء الشمس القادمة من النافذة المواجهة للفراش .أطل على شجرة "الكستنة" كما يطلق عليها إخواننا في الشام ، أو " أبو فروة " كما نطلق عليها في مصر.أتأمل الثمار المغلفة بالقشرة الخضراء المكسوة بما يشبه أشواكاً نباتية خضراء دقيقة، بينما تتناثر ، على الأرض ،الثمار ذات اللون البني الكستنائي بملمسها الرهيف.

الشمس اليوم رائعة ، بددت مخاوفي من تقلبات الجو والبرودة ، وبشكل خاص ، الأمطار التي كانت قد بدأت قبل ساعة من وصولي إلى شتوتجارت ، لكنها تراجعت ، متيحة لي فرصة الاستمتاع بجولتي الحرة الأولى بلا عوائق طبيعية!

أثناء استعدادي للخروج ، في منتصف النهار ، بدأت موسيقى ، تفيض بالحيوية، تصدح ،قادمة من جهة غرفة جاري الشاب الموسيقي (فابيان ويتر)، كان ذلك بمثابة مفاجأة صباحية مدهشة ؛ فقد كان لآلة الـ"كلارينيت " تأثير مزاجي رائع علي.

توجهت إلى محطة (شتافلن بيرج)- حفظــت اســم المحطـــة بمعجزة – التي تقع على بعد خطوات من حيث أقيم ، وحمدت الله لأنني لن أضطر للتعامل مع آلة التذاكر العجيبة ، حيث حصــلت على اشتراك أسبوعي لاستخدام القطار.

لم أجد مكاناً للجلوس ! فقد صادف الموعد توقيت العودة مــن المدارس : القطار مزدحم بالفتيات والصبية ، وبصخب لطيــف ! وبدا المشهد كله وكأنه صورة تليفزيونية مبهجة ؛ فكل شيء هنــا ملون ونظيف .. لا وجود للون الرمادي الذي اعتادته عيناي فــي القاهرة.

هبطت في المحطة الرئيسية. بحثت عن أية صحف عربية فلــم أجد شيئا ، بينما تراصت أمامي صــحف شــتوتجارت الرئيســية وعشرات المجلات الألمانية في كل شيء من السياسة والرياضـــة والفنون إلى مجلات المراهقين والتصوير والكمبيوتر.

ألقي بنفسي داخل اللوحة المزدحمة بالبشر والألوان والصـــخب الحنون !

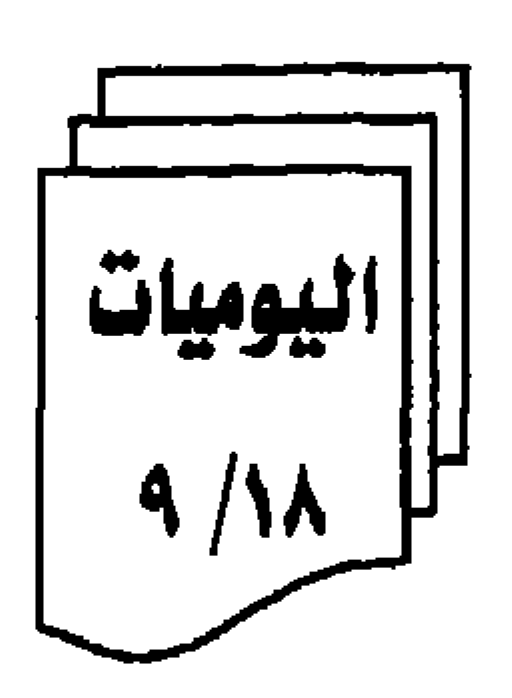
الجمال غالب على الملامح ، وكثيراً ما يكتسب طابعاً شــرقياً بسبب التركيات . لاحظت أن الفتيات وخاصة في عمر المراهقـــة يبالغن في الاهتمام بمظهــرهن الــذي لا يخلــو مــن الإثـــارة . البنطلونات ضيقة ووسطها ساقط لتبرز البطون الرقيقـــة الشـــاهقة البياض أو القمحية أو الخلاسية على السواء.

أصل إلى الساحة الواسعة المطلة على القصرين القديم والحديث، بينما تمتلئ المساحات الخضراء بأهل شتوتجارت ، وكأنهم يودعون الشمس قبل بدء الخريف .

أحيانا تبالغ بعض المراهقات التركيات في الاستعراض ، والطريف أن المراهقات الألمانيات هن أكثر من يلتفتن إليهن أو يتبادلن نميمة المراهقات ، ويبدو أن هذه سمة ذات طابع كونى !

بين تفاصيل اللوحة المتحركة المتناغمة تظهر أحيانا مجموعة من الشباب الأتراك ، يسيرون بتكلف وبخيلاء ، على الطريقة الأمريكية، مستدعين تراث نموذج " سيلفستر ستالوني " في سلسلة "روكي" . وتبدو طريقة سيرهم ونظراتهم المقتحمة للمارة مستفزة و نافرة عن تناغم الصورة . أعتقد أن لهذا "الكادر" من الصورة أبعاد أخرى .

المسألة التركية هنا لها وضعية خاصة لأن الأتراك يريدون الاستقرار في المجتمع الألماني دون أن يتخلوا عن تقاليدهم ، حتى لو اقتضى الأمر أن يعيشوا في "جيتو" معزولين تماما عن المجتمع، ولو أن الأمر ليس كذلك في شتوتجارت على نحو خاص إذ تعيش الجاليات الأجنبية كلها هنا مختلطة مع الآخرين لكن نتوء المسألة التركية يظل بارزاً ، وهو ما يحتاج لرصده بعض الوقت لتماسه أيضا مع ظلال المسألة العربية!



من أعلى نقطة في شتوتجارت أتيحت لي فرصة مشاهدة المدينة كلها. وهأنذا أقف على ارتفاع ١٥٠ مترا أعلى برج التليفزيون الذي صممه "فرتس لينهارت " . الخضرة والغابات الكثيفة بدرجات الأخضر الجميل في كل مكان .البيوت القديمة المكونة من طابقين أو ثلاثة بأسقفها المحدبة مثل الخيام والمغطاة بالقرميد تتناثر على التلال المحيطة بالمدينة، بينما العمارة الحديثة تتجلى في منطقة وسط المدينة (المنطقة التي تعرضت للدمار الشامل في أثناء الحرب) . ومع ذلك فهناك، في قلب المدينة بعض تحف العمارة التي تستدعي روح العصور القديمة مثل القصر القديم وأبراج كنيسة الأوقاف والقصر الحديث.

إلى أقصى يسار منطقة وسط المدينة من حيث أرصدها . كان قصر "سوليتود" أو " قصر العزلة " يقف شامخا أعلى إحدى الهضاب ببنائه المعماري الفخم ، ويعود تاريخ بنائه إلى قرنين مضيا تقريبا ، وكان من المقرر أن تتم استضافتي فيه على اعتبار

أنه مقر للفنانين الممنوحين لإنجاز مشروعاتهم الفنية ، لكن موقعه المعزول نسبيا خارج حدود المدينة حسم اختيار بيت الفنون . كنت قد زرت القصر أمس حيث شاهدت عدة عروض موسيقية وتشكيلية حديثة .

من هنا على هذا الارتفاع الشاهق تبدو المدينة و كأنها خالية من البشر ..لكنني كنت قد اقتربت منهم أمس خلال أولى جولاتي الحرة ، بالتحديد في شارع "كونجشتراسة" الذي يعد أكبر مساحة مخصصة للمشاة فقط و تمتد لنحو كيلومتر ؛ تصطف المحلات التجارية إلى اليمين و اليسار ، وتتناثر المقاهي والأرائك الخشبية للجمهور على أرض الشارع الطويل المبلطة بالحجارة العتيقة.

المدهش أنه بالرغم من كل هذا الزحام (الجمعة و السبت تزدحم الشوارع بالناس) لم أكن أسمع شيئا تقريبا! هدوء مدهش كأن مؤشر الصوت في هذا المكان لا يتجاوز ٣ درجات !! بينما مثيله بالقاهرة لا يقل عن ١٠ درجات بأي حال !!

كان الزحام قد بلغ ذروته صباح الجمعة بسبب الطقس الصحو والشمس حيث كان أهل شتوتجارت كلهم – تقريبا – مستلقين تحت أشعة الشمس في الحدائق الشاسعة ، وعلى المقاهي ثنائيات أو فرادى أو جماعات ، أما اليوم فقد أضيف سبب آخر وهو سوق السبت الشهير حيث يعرض الباعة هنا كل شيء : ساعات حائط

أنتيك ، لوحات قديمة، كراسي وأرائك ، أكواب فضية وخزفية، أطباق ودوارق وحلي للسيدات وغيرها، يشغلون الساحات الشاسعة في وسط المدينة ، والباعة تتعدد أجناسهم بين أهل شتوتجارت والأتراك وأهل آسيا ، ثم تظهر بعد ذلك المساحة المخصصة لسوق الخضراوات ثم سوق الورود والزهور ، وبالرغم من ذلك فإن الهدوء بدا مسيطرا على المكان.

وهو نفس الإحساس الذي اختبرته عندما مررت بالمكان نفسه بصحبة السيد "يواخيم كالكا" – الناقد الأدبي في صحيفة "فرانكفورتر ألجامابنة" – في طريقنا إلى متحف المدينة للفنون ، حيث كنت أستمع إلى آرائه عن الأدب الألماني المعاصر والحديث بينما انتبهت فجأة إلى الهدوء المدهش والمربك، ربما ، لأذن اعتادت الضجيج !

لكن الضجيج القاهري أيضا لن يكون له وجود في بقعة شاهقة مثل برج القاهرة.. حيث يمكن لعشاق تلك المدينة الأسطورية أن يتأملوا سحرها دون أن يمتلكوا القدرة على الإلمام بكل التفاصيل ، فهي مدينة شاسعة يصل تعداد سكانها إلى نحو ١٦ مليون نسمة ومن الظلم مقارنتها بمدينة شتوتجارت التي لا يتعدى تعدادها ٦٠٠ ألف نسمة .

****

خرزتان خضراوان بلون أشجار شتوتجارت تتلألآن في عمــق الليل تناجيان الصديق الممشوق الفــارع الطــول الــذي لا يــرى ابتسامته المطمئنة سواها ،و قبل أن تغفو ستهمس صاحبتهما باسمه و تتمنى له نوما هادئا .. في الصباح ستكون طلته هي أول ما تراه .. شامخا متحديا برودة الليل وآلام الوقوف على ساق واحدة.

خرزتان خضراوان تلتمعان بمياه الحزن المالحة .. لأن فارس الأحلام لن يستطيع – أبدا – أن يترك مكانه بسبب ساقه الوحيــدة ..شاهدا على الأخضر المتألق في كل مكان .

خــرزتان شحب لونهما الأخضر قليلا من انتظــار الحظ وما لا يأتي ، وأصبح لونهما بلون الفيروز المائل إلى الأزرق تصــعد على كتف صديقها القديم . تقف على ساق واحدة وتحدق في الأفق بحثا عن أحلامها الضائعة!!



بعيدا عن الأصدقاء الذين تعرفت إليهم خلال الأيـام الماضـية أحاول الحفاظ على المسافة التـي يفرضـها إحساسـي بفرديـة الأشخاص في المجتمعات الغربية إجمالا والمجتمع الألماني بشكل خاص.. أتجنب اقتحامهم بعيوني ، وتعاودني رغبتي الطفولية في الحيـاة داخل فقاعـة بلُورية أعيش فيهـا بحيث لا يراني أحـد بينما يكون بإمكاني "مشاهدة الحياة" من موضعي الخفي قادراً على تقصي تفاصيل الحياة اليومية، محاولا فهم المسكوت عنـه بقـدر الإمكان، بشـرط أن يكون مروري رهيفـا لا يخـدش المسـافة الخاصة للبشر .

ولعلني لهذا السبب لم أخبر أحـدا أن عيـد مـيلادي السـابع والثلاثين كان بالأمس ، واكتفيت أن تكون دعوتي للعشاء من قبل صديق ألماني (كريس)- يعمل في مجال العمارة- إلى بيتـه مـع مجموعة أخرى من الأصدقاء بمثابة احتفالي – السـري – بعيـد ميلادي . وبعد عودتي إلى حيث أقيم . تركت هاتفي المحمول في

الغرفة وذهبت إلى المكان المخصص لاستخدام الكمبيوتر لكتابة اليوميات ، وعند عودتي للغرفة مرة أخرى وجدت على المحمول إشارة لمحاولة اتصال هاتفي من زوجتي ثم رسالة تتمنى لي فيها عيدا سعيدا .

في الظهيرة كان الغداء الرسمي بمثابة حفل الاستقبال من قبل بيت الأدب بحضور مجموعة من الصحفيين والنقاد والمسؤولين الرسميين من البرامج الحكومية الثقافية في شتوتجارت ، بالإضافة إلى الشاعر الصديق "خوزيه أوليفير" الذي كان قد سبق إلى كتابة يومياته عن القاهرة في شهر مايو الماضي والذي حضر من سويسرا صباح اليوم على أن يعود مرة أخرى لاصطحابي إلى مكان مولده في الغابة السوداء بعد أيام.

اصطحبني "خوزيه" في جولة أخرى أتاحت لي فرصة معرفة مكان بيت الفيلسوف الألماني الراحل "هيجل" ، وقررت أن أعود إليه مرة أخرى بمفردي . توقفنا أمام البناية رقم ٤ في (كنال شتراسيه) – شارع القناة على الأرجح – وهي بناية صغيرة تحمل ملامح العمارة القديمة " محشورة " بين مبنيين آخرين – نجت جميعا من دمار الحرب – تمثل مقرا لما يعرف بـ " شريفتشلر هاوس " وهو بيت أدب يقدم منحا للكتاب الشباب للإقامة به لمدة ثلاثة أشهر .

كان "خوزيه أوليفير" قد بدأ حياته الأدبية و حصـــل علـــى أول منحة ثم أول جائزة من هذا المكان .استقبلتنا راعية المكان السيدة " أوش " اســـتقبالا أموميا حارا ، وقالت لي إنهـــا قرأت ما نشـــر عني بإحدى الصحف و حدست أن "خوزيه" ســـوف يصـــطحبني إليها، وأنها سوف تراه قريبا وصدق حدسها!

استكملت مع خوزيه حوارا طويلا كان قد بدأ بالقـــاهرة حـــول ألمانيا و مصر و الأوضاع الخاصة في كلا البلدين . ذكـــرت لـــه ملاحظة انتبهت إليها هنا عبر تعليق عابر من صديقة ألمانية تجيد العربية حول وجود بعد ثالث للأشياء هنا .النوافذ مثلا تفتح وتغلق ثم يوجد احتمال ثالث أن تفتح للتهوية من أعلى أو أن الفترة بـــين الغروب و الظلام طويلة نسبيا على عكس الأمور في مصر التـــي تتراوح بين بديلين لا ثالث لهما أبيض أو أسود؛ فأخرج من جيبـــه عملة معدنية سويسرية مشيراً إلى السمك الطفيف الـــذي يتوســـط وجهي العملة قائلا إن أحدا لا يلتفت للمكتوب هنا :

In God we trust !

تذكرت فورا الشاعر الجميل "أمل دنقـــل" .. « الملـــك يمســـك بالعملة ذات الوجهين / والفقراء بين بين » .

مررنا على مكتبته الأثيرة ومكتبة الموسيقى المفضـــلة لديـــه . أهداني بكرم بالغ من أجمل ما في الحياة .. كتبا أحبها وموســـيقى

أهواها وبينها اسطوانة لـ" فاجنر". تناولنا في واحد مـن مقاهيـه الأثيرة قهوة إيطالية مميزة. و في طريق العودة إلى بيـت الأدب مررنا على "منطقة الضوء الأحمـر" وهـي المنطقـة الخاصـة بالدعارة، وارتبكت من مشهد الفتيات أمام المحـال أو البيـوت .. ويبدو أن اعتيادنا أن يكون كل ما يتعلق بالجنس محظورا أو على الأقل أن يمارس بشكل سري أو غير شـرعي قـد تسـبب فـي ارتباكي!

بالنسبة لجيلي فإننا لم نشهد العصر الذي كانت بيوت الـدعارة شرعية تنتشر في أرجاء القـاهرة القديمـة حتـى منعـت فـي الخمسينيات لتسود الدعارة السرية بدلا منها وحتـى الآن . كنـت أفكر إذا ما كانت ثمة علاقة بين هذه الملاحظة وغياب أي صورة من صور التحرش الجنسي في شتوتجارت ، وبين اعتياد التحرش (أو معاكسة السيدات كما يطلق عليه العامة فـي مصـر) كمـا يمارسه بعض الرجال والشباب في مصر بشكل يكشف عن نوازع هستيرية يتسبب فيها الكبت بشكل كبير فيما أظن !!



يجلس القرد الحكيم مرتاحا ، يثني إحدى ساقيه أمامه متكئا عليها ، ويستند بإحدى ذراعيه على جذع الشجرة التي يعتليها .

يتأملني بلا مبالاة ، كعجوز أرهقته السنين . يبدو متعبا ، لكنه، بخبرة الزمن أيضا يعرف كيف يبدو متماسكا . يسدد لي نظرة عاقلة،متأملة، تفيض بالحكمة يقطعها بنظرة خاطفة إلى أنثاه التي تستند للشجرة المتاخمة له توليني ظهرها وجدائل شعرها الطويلة ذات اللون البرتقالي الداكن ، تذكرني بعروس البحر الأسطورية .. وكنت أظن أني أعيش – هنا وللمرة الأولى – في عالم يخلو من الأساطير.!!

اخترقتني نظرات عينيه ، وبدا وكأنه قادر على قراءة أفكاري ، وأسباب وجودي هنا أمامه ، على بعد آلاف الأميال من بلادي الضاربة جذورها في أعماق التاريخ ، التي تعاني الآن بعضا من الوهن ، إلى هنا في أحضان هذه المدينة الجميلة.. أبحث عن مواطن الالتقاء- والاختلاف بالتأكيد – مع جزء من ثقافة نعرفها

باسم الغرب . هذا الغرب الذي اخترع الشرق – على حد تعبير إدوارد سعيد – باعتباره مكانا للرومانسية ، والكائنات الغريبة المدهشة والذكريات والمشاهد الشبحية والتجارب الاستثنائية . وإن كنت أظن أن الدور الألماني في هذا الصدد لا يمكن مقارنته بدور بريطانيا أو فرنسا لأن ألمانيا تكاد تكون دولة أوروبية بلا مستعمرات لم تتورط في العصر الكولونيالي (مع بعض الاستثناءات الطفيفة في جنوب القارة الإفريقية).

شاهدت – قبل وصولي إلى مكان هذا القرد الحكيم – ألوانا من الحيوانات والنباتات النادرة التي تفيض بها هذه المساحة – الخضراء – الشاسعة ، المعروف باسم حديقة ويلما.. التي شيدت بأمر الملك ويليام الأول (١٨٤٢– ١٨٥٣).

شيدت مباني القصر والاستراحات الملحقة به على الطراز الشرقي الإسلامي ، بينما ضمت الحدائق مجموعة من النباتات النادرة من أرجاء العالم . في عام ١٩٥٠ تطور المكان ليصبح حديقة حيوان تضم الآن نحو ٩٠٠٠ حيوان من الزواحف – بكل ما يمكن ولا يمكن تخيله منها – والطيور النادرة وصولا للنمور والدببة والطيور الجارحة .

أما النباتات فتتراوح بين أنواع (الأوركيد) التي تتجاوز الآلاف إلى زهور اللوتس والصبار من كل أرجاء العالم ، إضافة إلى

ما ندر من الصبار والأشجار .. والطريـــف أن أهـــل المدينـــة – وخاصة السيدات المتقدمات في العمر – يعرفون النباتـــات التـــي يفضلونها على غيرها ويتابعون التطورات التي مرت بها.

لكن الحقيقة المدهشة تماما بالنسبة لي هي أن مصر التي عرفنا على امتداد التاريخ أنها دولة زراعية لا يمكنها أن تنـــافس كثافـــة المساحات الخضراء المنتشرة في كل أرجاء شـــتوتجارت رغـــم أنها- شتوتجارت – تعتبر مدينة صناعية بامتياز !!

لاحظت جرارا زراعيا صغيرا ومجموعة من الشباب والفتيات الريفيين، من العاملين بالحديقة.. وكنت أتـــساءل عـــن علاقـــتهم بالمنظومة التعليمية هنا.. وكيف يتصورون مستقبلهم فـــي مجـــال الزراعة القائم على الميكنة!

على امتداد المشايات والأروقة التي تتخلل هذا الجمال النـــادر دار بيني وبين مضيفي أرفين فريدل الصحفي ، الذي دعاني لهذه الجولة ، حوار طويل عن شتوتجارت وأوضاع الصحافة فيهـــا ، وعن حب ، وربما انحياز ، أهلها لها . وهذا مرتبط ، فيما يبـــدو باللامركزية التامة في ألمانيا ؛ فكل محافظة أو ولاية لها سلطاتها ونظامها الخاص في التعليم و السياسة والتوظيف، لكل منها أيضا صحفها الخاصة.و ربما يعود هذا أيضا إلى تاريخ ألمانيـــا التـــي ظلت على مدى قرون عبارة عن مجموعة من الإمارات قبـــل أن تجمعها قومية واحدة.

ثم دار الحوار عن الصعوبات الاقتصادية التي يعـاني منهـا المجتمع الألماني الآن بعد نحو ١٥ عاما من الانفاق على إعـادة تعمير الجزء الشرقي ، وهي الأزمة التي يبدو الجميع متأثرا بهـا حتى في مدينة ثرية مثل شتوتجارت يوصف أهلها بأن كل مـنهم يمتلك سيارة!!

مساء اليوم شعرت بإحساس العائد إلى بيتـه عنـدما دخلـت غرفتي !!



أين المجاذيب والشحاذون وغريبو الأطوار في هذه المدينة ؟

منذ وصلت إلى هنا وأنا أسال نفسي هذا السؤال .. حاولت الاقتراب من الأماكن الأكثر ازدحاما مثل محطة القطار ووسعت دوائر حركتي ولكن دون جدوى.! لا يعني هذا أنني لم أشاهد منهم أحدا.. فهم موجودون بطبيعة الحال ، لكن رؤية واحد منهم مسألة نادرة على ما يبدو ؛ شاهدت أحدهم يجلس على أرض الطريق منتحيا جانب الرصيف قبل أيام؛ نظيفا، يجلس في وقار ويضع يده أمامه .. وشاهدت آخر؛ غريب الأطوار . شعره الأبيض بالغ الطول ، ومزاجه حاد نسبيا. لكن ما أدهشني فعلا هو شاب صغير يبدو مثل طلبة الجامعات .. الطريف أن الفتيات المارات كن أكثر من تعاطف معه . تأملت ملامح وجهه فاكتشفت أنه وسيم أيضا (هذا يبرر أسباب التعاطف النسائي على ما أظن!) . لكن كيف يسقط مثل هذا الشاب من شبكة الضمان الاجتماعي ؟

هذه هي المشكلة – مع البطالة– التي تؤرق الحكومة هنا في شتوتجارت حسب ما فهمت من بعض الذين تبادلت الحوار معهم.

اتسعت ابتسامتي عندما شاهدت شخصا غريب الأطوار . يبدو في عقده الرابع ، يرتدي " شورت" و " تي شيرت" بــلا أكمــام ، ويضع على الأرض بجواره " جاكيت " ومجموعة مــن الشــعور المستعارة . شعر رأسه محلوق تماما، لكن ملامح وجهــه تحمــل سمات البراءة الممزوجة بالذكاء.

ليس هذا مجنونا أو مجذوبا على الإطلاق ؛ بل على العكــس ؛ لعله أذكى من ذلك كثيرا . إذ شرع يقدم حركاته الراقصة بإيقــاع رائع ، قبل أن يتوقف ليقدم فاصلا من الحركات المضحكة للأطفال الذين تراصوا مع أهاليهم من حوله . يعرف متى يهاجم المــارة ، بلطف بالغ ، ومتى يبدو رقيقا ، ومتى يثرثر بلغة - ألمانيــة - لا أفهم منها شيئا ، لكنني مع ذلك أستجيب له ؛ وأفقد السيطرة علــى نفسي لأطلق ضحكة صاخبة، كثيرا ما أفلتت منــي أيضــا فــي الحوارات الضاحكة مع الأصدقاء هنا.

من قال إن الألمان يفتقدون لروح المرح وخفة الظل؟!



" كيف يمكن أن يصبح شئ معاش غريبا عن شخص ما ويمكن أن يفلت من يده ؟! "

أسال نفسي وأنا أتأمل حالي وتجربتي هنا في ألمانيا نفس السؤال الذي سأله "هرمان هسه" على لسان أحد أبطال قصصه الأولى قبل نحو مائة عام .

أردد مقولة هسه وأنا في طريقي إلى مدينة " كالف" على مسافة نحو ٥٠ كيلومترًا من شتوتجارت ، حيث ولد وعاش فترة من شبابه.

بلدة صغيرة محاطة بالتلال الخضراء .. ملامح الناس هنا تختلف قليلا عن ملامح أهل شتوتجارت بها مسحة ريفية لا تخطئها العين .. ويسود الهدوء المكان، وفي المقاهي المتفرقة ستجد أغلب الجالسين من السيدات كبار السن ، أحيانا مع أزواجهن، و مع صديقاتهن أو ربما بناتهن ، ثم يتناثر أشخاص من أجيال أخرى هنا وهناك.

أتأمل شابا نحيفا و فتاة شقراء يسيران كعاشقين من زمن قـديم تحت مظلة سوداء يحتميان بها من المطر الذي بدا غزيـرا منـذ الصباح.يمسك الفتى بالمظلة بينما تتأبط الفتاة ذراعه . يتوقفان أمام حانوت لبيع المخبوزات للسؤال عن منزل "هسه" ، ويغلق الفتـى المظلة . عندما يخرجان يفاجأ الفتى بأن المظلة قد تلفت، وكلمـا حاول فتحها عاندته كأنها تصر يكون مشهد احتواء العاشقين أسفلها هو آخر مهامها النبيلة.

يستكمل الفتى والفتاة سيرهما باتجاه المنزل الذي يأوي متحـف "هرمان هسه" غير عابئين بالمطر، بينما أسير خلفهمـا ، كـأنني أقتفي أثرهما ، محاولا اختبار اختلاف إحساس كل منهما بـالآخر بدون المظلة .. بينما أتساءل عن المساحة التي سيشـغلها مشـهد توحدهما تحت المظلة في ذاكرة كل منهما على السواء.

تدهمني إشكالية الزمن مرة أخرى أو ما أحب أن أسميه "ألعاب الزمن" ؛ هذه التي لا تجعلني أعيش الحاضر بشكل حقيقي، وإنمـا أنتظر ما سوف يستقر منها في وجداني ، بعد ساعات أو ربما أيام. " كأن الزمن ليس سوى تكثف الواقع إلى سحابة الضباب المعلقـة في سقف الذاكرة ، وما يتبخر منها يصبح عدما خارج الزمن " كما يقول واحد من أبطال روايتي الأخيرة .

اقتربت قليلا من الفتاة في أثناء تجوالها في غرف المتحف .. "هنا جرؤت على أن أنظر إلى السيدة أيضا ، وكانت حلوة وجميلة جدا بحيث أنني شعرت بأنني انتقلت بزهو فخار إلى أجواء الغبطة والنعيم الخاصة بعالم النبلاء..".

صور" هرمان هسه " في طفولته تكشف الشبه الكبير بينه وبين ابنه الذي يظهر في مجموعة أخرى من الصور. عندما استمعت إلى صوته في الغرفة المخصصة لذلك بدا لي صوت عجوز قوي النبرات . لا أفهم شيئا مما أسمعه لكنني أستطيع إدراك فصاحته مستدعيا صوت الكاتب المصري الراحل "طه حسين" .

أتأمل آثاره .. نظارته ذات الإطار المعدني الدائري ، وقلمه ومكتبًا خشبيًا صغيرًا والنسخ الأولى من كتبه العديدة أميز منها ما لا يحتاج إلى ترجمة " سد هارتا" و " دميان " و – طبعا– "لعبة الكريات الزجاجية ". ثم نماذج عديدة من خطاباته ،بينها خطاب لوالده يهدد فيه بالانتحار حزنا على انفصاله عن فتاة وقع في غرامها ، والمسدس الذي كان ينوي أن ينتحر به. وخطابات أخرى ضمت فقرات يصف فيها قسوة الحياة المدرسية . بعضها يشير إلى معاناته في اختيار المواد الدراسية لأنه كان قد قرر مبكرا أن يصبح كاتبا ولم يكن بين هذه المواد ما يؤهله لذلك . أما البيت الذي كان يعيش فيه فيقع على بعد عدة خطوات من المتحف ..

يبدو وكأنه تعرض للتجديد . أحاول تخيل شكله منذ أكثر من مائة عام بينما أتذكر جولاتي في منطقة القاهرة القديمة من "خان الخليلي" إلى شارع " قصر الشوق " و "السكرية" حيث دارت أحداث أهم روايات "نجيب محفوظ" التي امتزجت بتاريخ المكان وأصبحت واقعا لا يمكن فصله عن الخيال . المقارنة بين البيئة التي نشا فيها كل من محفوظ و" هسة " تنعكس في أعمالهما الأدبية بشكل مدهش في الحقيقة.

" ورأيت نورا في الغرف وقلت في نفسي ربما رأتني مرة أخرى فهي تحبني" .

لمحت الفتى و فتاته الشقراء مرة أخرى في طريق العودة.. وأحسست بالبرودة تحاصرني .. وفي ذهني دار السؤال عما إذا كان بإمكانهما العودة إلى هذا المكان معا مرة أخرى أم لا !!

ألقيت نظرة أخيرة على متحف هسة ولمحت السيدة الجميلة من النافذة !!

" وما من مرة لامست يدها يدي أو فمها فمي .. في الحلم فقط، حدث لي هذا عدة مرات في الحلم فقط"...

"ورحلت بعيدا إلى مدينة أخرى"!!

** الفقرات بين الأقواس من قصة المغامرة الأولى لهرمان هسه وكتبها عام١٩٠٦



أحب الطريقة التي ينطق بها الألمان اسمي ، حيث يبدو لي خفيفا سهلا متخلصا من ثقل النطق الشائع له في اللغة العربية . لكنني لا أستطيع أن أميز اختلاف لكنة أهل الجنوب هنا عن غيرها من مناطق ألمانيا من مجرد نطق الاسم ، ويقال إن اللكنة هنا في الجنوب أثقل قليلا من غيرها.

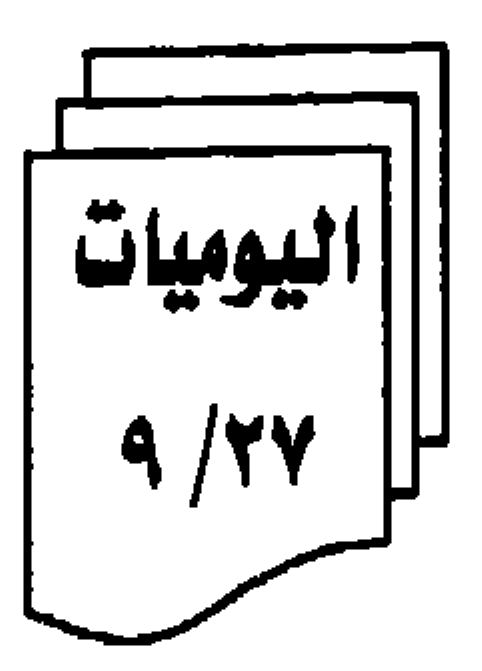
أخبرني جاري الموسيقي الشاب " فابيان " أن أهل "برلين" لهم لكنة مميزة ونموذجية ، لكنه بشكل شخصي يحب لكنة أهل "هامبورج" ويعتبرها لكنة خفيفة لها أسلوب مميز.

كنت قد سؤلت كثيرا هنا عن اختلاف اللكنات العربية عن بعضها البعض ، وأوضحت للسائلين أننا في مصر نتميز باللكنة الأخف ثقلا – ولعلها الأكثر ابتعادا عن العربية الفصحى وأعتقد أيضا أن لدينا الكثير من المرادفات التي تعود أصولها إلى اللغة المصرية القديمة – لا ينافسنا في خفة اللكنة وأسلوبها المميز إلا أهل الشام و خاصة أهل بيروت .

لكننا في مصر أيضا لدينا هذا التمايز و الاختلاف بين اللكنة المصرية . فهي تبدو ثقيلة في منطقة الجنوب وتخف كلما اتجهنا إلى الشمال ، وحتى في المدينة الصغيرة التي ولدت بها (المنصورة) تختلف لكنة الطبقة الوسطى فيها عن الفئات الشعبية بينما يمتلك أهل الإسكندرية لكنة خاصة جدا و هكذا.

وبالرغم أنني لم أتعلم من الألمانية سوى كلمات طفيفة اكتسبتها هنا من التكرار لكنني بالتأكيد أستطيع فهم لغة العشاق بسهولة - وأظن أن لغة العشاق لا تختلف كثيرا في أي مكان في العالم - وهم هنا يعبرون عن مشاعرهم بوضوح كامل ، وبقبلات حارة تتراوح بين الرومانسية الدافئة والشهوانية الملتهبة، في الشوارع والمقاهي والملاهي الليلية ومحطات الترام - ولعل هذا واحد من التجليات العديدة للإحساس الشديد بالحرية - بحيث يصبح التعبير بكلمة "أحبك" بالألمانية أو بأي لغة أخرى ، تعبيرا محدودا وقاصرا وعاجزا عن التعبير .

أعتقد أن العالم لا بد أن يلتفت لدراسة تاريخ وسير العشاق والحرية بديلا لتاريخ الحروب والقهر الذي دمر العالم ولا يزال.



عدت صباح اليوم من برلين .. في الطائرة من مطار بــرلين إلى نظيره فى شتوتجارت لم أستطع أن أطرد – مــن خيــالي – مشهد الجسد العاري الذي تعرض لحادثة مأساوية مزق على أثرها من أعلى الرأس إلى أخمص القدم .

تحسست موضع الندبة التي تمتد بطول الجسد ؛ لها ملمس ناعم رقيق لكنها ناتئة قليلا . التأمت ، لكنها ما زالت موضعا لألم خافت كان مروعا وقاسيا على مدى سنوات . توقف النزيف أخيرا ، لكن الجسد المتألق بالحسن ما زال يعاني تمزيقه طويلا إلى شرق بائس وغرب يرفل في النعيم ، ها هو يستعيد عافيته ، وتدب الحياة فــي شرايين القلب النابض بإرادة الحياة.

قلت لها إنني قرأت عنها طويلا وسمعت عن معاناتها الطويلــة دون أن يرف لها جفن أو تشكو لأحد ، لكنني لم أستطع تمثل الألم والعذاب الذي تعايشت معه واحتملته على مدى كل تلك السنوات.

فابتسمت لي ، وانتفضت لتسدل على عريها ثوبا أنيقــا زاهــي الألوان كأنما تؤكد لي أنها الآن جسد واحد ، قلب واحد .. ثم إنها أمسكت بيدي داعية إياي لتصطحبني إلى عمق أعماقها.

أعرف الآن أن شتوتجارت ليست ألمانيا ، وأدرك أنها مدينة صغيرة مقارنة ببرلين ، لكنني أدرك أيضا أنها مدينة نموذجية ذات طابع خاص ، ولها روحها الفريدة ، البعيدة تماما عن روح المدن الكبرى بكل تعقيداتها ، تحتفظ بخصوصيتها كمدينة صغيرة ثرية ونظيفة، متناغمة في معمارها و تنسيق شوارعها وروح أهلها.

أما برلين فهي مدينة شاسعة ، تمتلئ بأنواع البشر وطرز البناء، بالشوارع الواسعة التي تتنافس فيها الدراجات مع السيارات! وبالتراوح بين أحياء نظيفة وأخرى لا تخلو من القذارة . وبالتنوع الذي يقارب الترف في البارات أو الحانات والمطاعم والمراقص والمتاجر والمتاحف الموجودة في كل مكان.

صحبتني مضيفتي" الدكتورة سونيا حجازي" إلى المنطقة التي تضم بقايا السور الذي لعب دور "السكين" العازل على مدى سنوات؛ حيث شاهدت جاليري الجزء الشرقي وهو جزء من السور قام بعض الفنانين برسم مجموعة من الرسوم ذات الطابع الشعبي عليه وبينها رسم لصورة القبلة الشهيرة بالفم بين "ليونيكار" و "بريجينيف" .

أما بقية أجزاء السور الذي تم هدمه عام ١٩٨٩ فقد بقيت آثارها على أسفلت الطرق والشوارع .. شاهدت أيضا الكثير من الشواهد التذكارية لسكان الجزء الشرقي الذين كانوا يحاولون الهرب إلى الجزء الغربي فقتلوا بنيران الجنود .. أتأمل الفكرة وأنا

أتعجب من مدى بشاعتها : تقسيم شعب بلد واحد إلى طائفتين وفقا للتقسيم الجغرافي!!

في لقاء مع كرست – صحفي من برلين – أوضح لي طبيعة التناقضات والتعقيدات وتشوش الأفكار الذي تسببت فيه هذه الحالة العبثية بالإشارة إلى مقولة شائعة سادت لفترة هي : إذا لم تكن شيوعيا فأنت بلا قلب ، أما إذا ما كنت شيوعيا حتى الآن فأنت مجنون بالتأكيد .

وبالرغم من أنني لم أشاهد نقاط التفتيش الإسرائيلية إلا عبر شاشات التليفزيون ، وكنت أظنها ليست موجودة إلا هناك ، لكنني شاهدت في برلين نقطة تفتيش(أمريكية هذه المرة) محاطة بأكياس الرمال ، وأمامها يقف ضابط أنيق يسعى الجمهور لالتقاط بعض الصور التذكارية معه . ابتسمت مضيفتي و هي تشدني من ذراعي لتقول لي إنها ليست حقيقية ، وإنما للتذكير بالتاريخ الذي كان ثمنا لحرب بلا معنى ، وكانت إحدى تكاليفها الباهظة : تقسيم ألمانيا إلى مناطق تحت إشراف دول الحلفاء.

العمارة في أجزاء واسعة من برلين الشرقية تماثل التي نعرفها في المساكن الشعبية وإسكان الشباب في مصر: النموذج الروسي الشهير لتعليب البشر في مساكن صغيرة تفتقر لأي نوع من الذوق الجمالي في العمارة ، أو مراعاة حق البشر في شرفة يطلون منها على العالم . وهناك مناطق كثيرة في برلين ذكرتني بحي مدينة

نصر في القاهرة ، وأخرى ذات طابع أكثر حداثة ذكرتني بمبان شاهدتها في "دبي" في دولة الإمارات .

من برلين اصطحبتني مضيفتي إلى الريف ممثلا في بلدة صغيرة تطل على بحيرة على بعد نحو ٥٠ كيلومترًا من برلين هي (بوكو) ، ومرة أخرى تصطدم عيناي بالخضرة الرهيبة التي تحيطني من كل مكان ، وهو ما أتاح لي فرصة زيارة البيت الصيفي للكاتب المسرحي "بريخت" الذي انتقل إليه بصحبة رفيقة حياته هيلين ويجل Helen Wiggle منذ عام ١٩٥٢ و حتى توفي.

أستطيع الآن أن أفهم كيف يوهب الكتاب الألمان الإلهام في مثل هذه الطبيعة المدهشة .. محاطون بالأخضر الجميل وهم يطلون على البرك التي تضم في أعماقها سحر العالم بينما ينصتون لهمس كائنات الغابات المحيطة بهم في كل مكان .

عندما وصلت إلى مطار شتوتجارت اضطررت – للمرة الأولى – للتعامل مع آلة التذاكر العجيبة للحصول على تذكرة للمترو قاصدا "بيت الفنون" Kunststiftung .. و لم يكن الأمر معجزا كما كنت أتصور .. ضغطت على الأرقام الخاصة بمحطة (شتافلين بيرج) بينما كنت أشعر شعورا حقيقيا بأنني عدت إلى البيت!



يقولون إن القاهرة هي مدينة الألف مئذنة ، و هذا صحيح . لكني يمكن أن أقول مطمئنا إن شتوتجارت هي مدينة الألف درج (سلم)! فأينما وليت وجهي هنا وجدت درجا حجريا يقودني إلى منزل أو حانوت أو حتى إلى الغابة ، ولعل درج المنزل الذي أقيم به بيت الفنون (أو كونس شتيفتونج كما تنطق بالألمانية) يعتبر نموذجا مثاليا لم أنتبه إلى مدلوله عند وصولي في اليوم الأول ، إذ إنه يشير إلى الطبيعة العامة لهذه المدينة ، باعتبارها تقع أعلى التلال ، يجسد حالة شتوتجارت كمجتمع مثالي يتمتع بالنظافة غير الطبيعية بشكل يفوق أي مدينة أخرى والثراء والطموح لإعادة بناء مدينة حديثة للقرن الحادي والعشرين بعمارة تدخل بالمدينة القرن الجديد بشكل مختلف .

ليس هذا فقط ما يميز شتوتجارت فهناك أيضا مصنع سيارات "بورش" الشهير.

هل تتمنى أن تقود و تمتلك سيارة مــن ماركــة " بــورش" ؟! سألتني " كورينا " في أثناء جولتنــا داخــل مصــنع "بــورش" أو "بورشه" كما ينطقها الألمان ، حيث نتابع طريقة صناعة واحدة من أقوى السيارات في العالم وأغلاها ثمنا . ونتفادى في نفس الوقــت واحدا من "الروبوت" الذي يمر بين الحين والآخر لنقــل أجــزاء مختلفة من السيارة .

قلت لها مبتسما إن هناك الكثير من الأشياء فــي هــذا العــالم أتعامل معها باعتبارها خيالا لا يجوز التورط بنقلهــا إلــى عــالم الواقع.

ضحكت وقالت إنها كانت تنظر للأمور بهذا الشــكل ، لكنهــا بدأت تفكر في الأمر بجدية!

وعودة إلى الروبوت ، فهو على كثرة أعداده هنا لا يتدخل في أي مرحلة من مراحل صناعة السيارة ؛ فهي سيارة تشتهر بأنها " تصنّع يدويا" يتراص العمال على خط الإنتاج بينما تتحرك السيارة كهيكل فارغ أمامهم ، ويقوم كل منهم بتركيب الجزء الذي يخصه وهذا تحد ألماني خاص يؤكد على صفات شخصــية .. المهــارة والإتقان والإخلاص .

المدهش أنني في مصنع سيارات بهذا الحجم لا أشــم رائحــة زيوت أو شحوم من أي نوع ، ولا حتى روائح الحريق الناتجة عن

عمليات اللحام - كما هو شائع في مصر - ولا بقعة شحم علـــى ملابس العمال أو على الأرض . وأدهشني أيضا انتشار عدد مـــن الفتيات بين العمال تؤدي كل منهن مهام التركيب المطلوبة بجدية ، وهالني جمالهن ، وفهمت أن أغلبهن ألمانيات، مثل أغلب العمـــال هنا إلى جانب بعض العمال من بلاد أخرى .. كل شيء هنا يلمع كالعادة والألوان مبهجة .

عندما وصلنا إلى المرحلة النهائية شاهدت أكبـــر عـــدد مـــن سيارات بورش يمكن تخيله متراصة بجوار بعضها فـــي انتظـــار اختبار القيادة وتذكرت ما أخبره لنا الدليل عن سعر وحدة الفرامل (المكابح) موضحا أنها تقريبا ٧٧٠٠ يورو ! ففقدت الرغبة فـــي معرفة سعر السيارة التي تأكد لي انتماؤها إلـــى عـــالم الخيـــال ، وعندما اقتربت منها أكثر لأتأمل التفاصيل عن قرب أدركت أنهـــا تتجاوز حدود الخيال. أنها لا تصلح إلا لأحلام اليقظة واستعدت - مرة أخرى - مقولة هرمان هسه : « كيف يمكن أن يصبح شـــئ معاش غريبًا عن شخص ما ويمكن أن يفلت من يده ؟! » .



أصبحت الآن أكثر تآلفا مع المدينة .. لمست ذلك خلال تجوالي في الشوارع صباح اليوم . أتأمل صورة الرجل الوسيم الذي يرتدي نظارة طبية أنيقة وأبتسم ؛ فقد كانت الصورة الملونة الجذابة معلقة في كل مكان ، وكنت أظنها إعلانا عن النظارات الطبية حتى عرفت أخيرا أنها صورة المرشح لمنصب عمدة شتوتجارت في الانتخابات المتوقعة بعد أيام .

في القاهرة تتحول المدينة – أثناء فترة الدعاية الانتخابية – إلى صندوق لانهائي المساحة يضم آلاف اللافتات الخشبية والورقية وتلك المصنوعة من الأقمشة ، وتقام السرادقات في أرجاء الشوارع لتعلق عليها أكوام الملصقات الرديئة وتتشوه جدران العمارات والمباني بصورة رديئة الطباعة للمرشحين.

لاحظت هنا ، في محطات المترو وفي الشوارع ، بعض اللوحات الإعلانية الجذابة .. وبعضها يتكرر في مناطق كثيرة مقارنة بغيره مثل ذلك الإعلان عن أطقم الملابس الداخلية للسيدات عبر ملصق أنيق لسيدة ترتدي طاقما داخليا أسود .. ولكن الملصق

له طابع محافظ و هادئ ، وهذه سمة عامة في شتوتجارت ، فلا توجد هنا مظاهر عري صاخب . في حوانيت بيع الصحف تتراكم المجلات العارية الشهيرة - في طبعات ألمانية- تزهو أغلفتها بصور فتيات فاتنات باذخات الأنوثة. لكنها لا تلفت انتباه أحد .

أحد التفسيرات أن المجتمع قد أتخم لفترة طويلة بالصور الجنسية وكتب الإثارة والروايات والدوريات الإيروتيكية ومظاهر التحرر الجنسي بشكل عام ، وحدث نوع من التشبع ؛ فلم يعد شيء من هذا مثيرا لاهتمام أحد.

ومع ذلك فهذا لا يمنع اللمسة الأنثوية الطاغية التي تتمتع بها الإناث هنا ، خاصة أنهن لا يمتلكن أجسادا ضخمة كما يشاع عن الألمانيات ، بالعكس فهن متوسطات التكوين ، وأحيانا تبدو أجسادهن دقيقة وأصغر قليلا من المعدل ، وهذه سمة من سمات الفتيات هنا في الجنوب .

من حواراتي مع الأصدقاء هنا أستطيع أن أفهم أيضا أن طبيعة العلاقات الحرة بين الجنسين (وبين الجنس الواحد) هي سبب آخر لعدم الانشغال بمظاهر الجنس الفاضح . فالعلاقات بين الشباب والفتيات هنا تستمر، بدون زواج ، لسنوات طويلة، وبدون إنجاب أيضا بسبب ظروف العمل التي قد تتطلب الانتقال من مدينة إلى أخرى ، وقد تضطر الفتاة لأن تعيش في مدينة بينما صديقها

يعيش في أخرى أحيانا لسنوات وهــذه واحــدة مــن المشــكلات المتكررة في المجتمع الألماني بشكل عام.. وربما أن هذه العلاقات المستقرة دليل آخر على أن الألمانى يعرف جيدًا ما يريــده فــى الحياة وفى العاطفة على السواء !

شاهدت فتاتين قريبا من إحدى محطات المترو يتوادعان بقبلــة فرنسية ساخنة وتصورت أنهما سحاقيتان .. لكن مثل هذه الأمور هنا تبدو طبيعية تماما ولا تثير استهجان أحد . وحتى الشباب قــد يجد بعضهم أنفسهم أكثر انجذابا لأطــراف مــن نفــس جنســهم فيقررون التحول إلى المثلية الجنسية ، وهذه حرية جنسية ، لكنها ربما لا تكون مقبولة بشكل كامل لدى الأجيال الأكبر عمرا كمــا فهمت .

في مصر تختلف الأمور ، ومع التغيرات التي يشهدها المجتمع انتشرت – مثلا– في الســنوات الأخيرة ظاهرة الزواج العرفي – السري– بين طلبة وطالبات الجامعات ، وهــي ظــاهرة جديــدة لا يمكن تعميمها بطبيعة الحال ، لكنها أثارت جدلا واسعا لكــون الفتيات يحللن لأنفسهن ما تعتبره الأعراف دعارة (لأنه يتم خارج مؤسسة الزواج) بورقة يعتبرها الطرفان ميثاقا يشهدان فيه الله على زواجهما.

أما الغالبية العظمى من الفتيات في المجتمع المصري فما زلن على يقين بالقيمة المقدسة لغشاء البكارة الذي يعتبر ضمانا لزواج الفتاة .. ومع تأخر سن الزواج بسبب الصعوبات الاقتصادية التي يعاني منها الشباب انتشرت ظاهرة التردد على عيادات الأطباء الذين يجرون عمليات ترقيع غشاء البكارة .! لكن هناك أيضا الكثير من الشباب والفتيات الذين تجاوزوا فكرة البكارة لكنهم يظلون استثناء بالتأكيد .

تذكرت الآن تفسيرا آخر لغياب صور العري الأنثوي بشكل فاضح في شتوتجارت يتعلق بقوة الحركات المعارضة لاستغلال المرأة باعتبارها سلعة إعلانية ، ومع ذلك ، فإن وضع الرجل ليس أقل سوءا الآن في إطار تركيز الكثير من الجهات الإعلانية والمجلات على فكرة جمال الجسد الذكوري في رسائل دعائية موجهة إلى جمهور الإناث أو المثليين على حد سواء !



" كيف أحبك؟ دعني أصف لك كيف أحبك.."

.. كأنما كنت أسترق السمع لخاطر الفتاة الشقراء ذات الجسد المدملك الباذخ الأنوثة وهي تمسك بذراع عشيقها الشاب وهما يقفان أمامي بين جموع المحتفلين بمهرجان البيرة الشهير ، الواقفين جميعا تحت السماء التي تتألق بوهج ملون.. أحمر وأصفر وأخضر وبرتقالي.. بينما صوت المفرقعات المدوي المتتالي يبدو وكأنه شريط صوت لوقائع معركة حربية تدور في مكان ما من أرجاء العالم، غير عابئين بالبرد ولا رذاذ المطر. تعانق العاشق وفتاته وغرقا في قبلة فرنسية حميمة ، وبالرغم من شهوانيتها إلا أنها بدت لي شديدة الرومانسية، وكنت أسمع صوت الشاب مرة أخري يهمس في أعماقي " تغير وجه العالم في ظني منذ سمعت خطو روحك لأول مرة " .

أتأمل الدوائر والحلزونات وقطرات الضوء الملونة التي تلون السماء الحالكة وأرى وجوها لا يراها غيري ، لأطفال أحب نظرات عيونهم . أرى أقنعة بشرية شاهدتها في حياتي أو في

الأحلام، ووجوها لأحبة غيبتهم حدود الجغرافيا والزمن.. ووجوه لا وجود لها إلا فى شاشة أحلامى أرى وجهي الذي لا يعرفه أحد، ثم وجها تختفي من حوله كل الوجوه، تبرق العينان بكل الألوان.. الأحمر والأخضر والأصفر والبرتقالي ثم تتألق بالأزرق الرائـــق الجميل.. تحدق في وتخبو كل الوجوه ، وأسمع الصوت قادما من أعماقي مرة أخرى " تغير وجه العالم منذ سمعت خطو روحك".. وجه ملاكي الحارس يضئ السماء.. أفقد الإحساس بالزمن. كأنني بلا أمس. أنا هنا الآن وفقط. أو ربما أحلــم. يتوقــف شــعوري بالخوف. وأقاوم الإحساس بالبرودة.. وتنتفض روحي بالســؤال.. هل أشكوك إلى السماء؟ أم أشكو السماء والزمن والأيام إليك؟!

يبدأ فاصل أخير، وهستيري ، من الألعاب النارية التي تتقـــافز في ظلام السماء كأنها تحاول التشويش علي وجه الوجوه ، وبدوا لي أطيافا ثقيلة لأشخاص لم أحبهم، ثم تحولوا بغتة إلـــى كائنـــات هلامية تعيش أسيرة بين عالمين: عالم قضي وعالم عـــاجز عـــن الخروج إلى الحياة !

حل صمت السماء فجأة، وأسدلت ستائر الظلام مرة أخرى ليبدأ صخب أهل شتوتجارت مصفقين ابتهاجا ببدء مهرجانهم السنوي ، بينما شرع العشاق يتعانقون طويلا . نظرت إلي "خوزيه" الذي كان يقف بجواري مبتسما ثم حيينا شقيقه "أوجيينو" وزوجته كريستيانا

اللذين كانا يحتفلان بعيد ميلاد أوجيينو . واقترح إرفين من بيت الأدب أن نذهب لشرب نخب عيد الميلاد في مكان . وكان هذا آخر فصول هذا اليوم .

أما أول فصوله، فقد كانت قاهرية بامتياز ،فقد بدا الزحام لافتا عندما وصلت أنا و"كورينا" و"إنجو" إلي محطة المترو، وفي القطار شعرت بالاختناق من شدة الزحام والحرارة ، ولو لم أكن أسمع صخب الجمهور حولي باللغة الألمانية لظننت أنني في القاهرة. بل إن تكدس الركاب غير القادرين علي أي حركة قريبا من الأبواب ، أدى إلي امتناع الأبواب عن الحركة في بعض المحطات ، فقد كان الجميع، ونحن معهم، في الطريق إلي إستاد المدينة Gottlieb-Daimlerstadim لمشاهدة مباراة فريق شتوتجارت مع بودابست في دوري الفرق الأوروبية، وكان الجمهور يعتبرها مباراة ثأرية لأن "كوراني" نجم شتوتجارت والمنتخب الألماني كان قد أصيب في المباراة الأولي إصابة أبعدته عن الملاعب لفترة طويلة ومنعته من المشاركة في هذه المباراة أيضا.

في المسافة بين محطة المترو والاستاد لاحظت الكثير من الفتيات يهرعن لمشاهدة المباراة ، بعضهن برفقة بعض الشباب، وأخريات فضلن الوحدة. يعدون بحماس للحاق بالمباراة .

هللنا أربع مرات، وضحكت بصخب بالغ إثر إحراز شتوتجارت الأهداف الأربعة؛ من شدة نشوتي بالموسيقي الصاخبة الحماسية

التي كانت تعزف بعد كل هدف ، وعلي الطريقة التي كان المعلق يعلن بها إحراز الهدف حيث يبدأ برقم الهدف فتهتف الجماهير بصخب جنوني، ثم يشير إلي نتيجة بودابست بكلمة صفر(تنطق بالألمانية نويل) ويطيلها قليلا بينما الجماهير تقلده بحماس .. نويييييل! بينما كان الأطفال والفتيات يحيون كوراني صاحب الجماهيرية الجارفة، وهو يقف بجوار احتياطي فريقه . هكذا تبدو كرة القدم بمثابة لغة عالمية ينطقها العالم كله بلا ترجمة .

بعد انتهاء المباراة انطلق الجميع لاستكمال احتفالهم في مهرجان البيرة القريب...تبدو الساحة الشاسعة وكأنها مدينة للملاهي الإلكترونية، بينما تستقر ثلاثة مبان ضخمة وشاسعة كل منها تأخذ شكل خيمة خشبية ، تتسع لموائد طويلة يتراص حولها الجمهور من الكهول والشباب.. أقداح البيرة الخزفية أو الزجاجية سعة الواحد منها لتر، والموسيقي التي تعزفها الفرقة الموسيقية أعلى المنصة التي تأخذ ركنا من أركان المكان تختلط بأصوات البشر يرددون الأغاني بينما تعلو وجوههم بهجة طفولية وحماسية. الأغاني الكلاسيكية القديمة . تتسم بالرومانسية يفسر لي "خوزيه" إياها واحدة بعد الأخرى، وتتعلق بذاكرتي إحداها تحكي قصة حب بجوار النهر بين عاشق يشاهد فتاة فاتنة على ضفاف أحد الأنهار لأول مرة وعن ممارسة الحب، وطفل يأتي بعد تسعة أشهر!

ألقينا نظرة علي الخيمة الثانية ، وكانت نسبة الشباب أكبر قليلا من سابقتها، ثم جلسنا مرة أخري في الخيمة الثالثة ، وكانت تفور بحماس الشباب وصخبهم ، الوجوه تعلوها ضحكات لا نهائية ، الفتيات يرقصن وقوفا مع أصدقائهن، وأحيانا يقوم شاب بحمل فتاته ويرقص بها و هو يقف على الأريكة الخشبية الطويلة .شاهدت الجزء السفلى لظهر فتاة بيضاء، بدا بضا وموشوما برسم جميل ، وجزء من ردفيها كشف عن الرداء الداخلي الصغير أكد لي إحساس الفتيات العالي هنا- مرة أخرى- بأنوثتهن .

ضحكت طويلا ، وشاركت خوزيه وإرفن النكات والقفشات ، وتابعت مشاهد التعبير عن البهجة من حولي ، وحاولت أن أجد لها مثيلا في مصر ، فلم أجد سوى الموالد (حفلات الشباب الغنائية استثناء و هي ليست ذات طابع شعبي على أي حال) لكنها احتفالات لها طابع ديني في المقام الأول تقام حول مقامات الأولياء تمارس فيها حشود الجماهير طقوس التبرك والتقرب للأولياء، وفي أركان أخري يمارس البعض "الذكر"، ثم تتوالى أركان أخرى لتعاطي الحشيش، بينما يبحث بعض الشباب عن فرص الاحتكاك بأجساد الفتيات والسيدات مستغلين الزحام الرهيب سائرا ومبررا يجعل الأمر أحيانا وكأنه مدبر من الطرفين !

** العبارات بين الأقواس من شعر اليزابيث برا ونج .



أحيانا أتجاهل فكرة وجودي هنا كـزاوي مدينـة ، مستسلما لافتراض أنني أعيش في هذه المدينة لأستمتع بمذاق الحياة . أتجول بين المكتبات التي تمتلئ بها الشوارع.. كلها أنيقة ، والكتب متراصة بطريقة تغري بالتوقف أمامها لساعات ، وعندها أشعر بالندم لعدم معرفتي باللغة الألمانية من فرط ولعي بتصفح الكتب ومعرفة الموضوعات التي تتناولها .

بعض هذه المكتبات تتخصص في نوع واحد من الكتب مثل كتب الفنون المصورة ، أو الكتب المتخصصة في الروحانيات وديانات شرق آسيا ، التي يحرص أصحابها على أن يكون الديكور والتصميم الداخلي موحيا بأجواء الموضوعات التي تتناولها الكتب، ويعبق بعض النباتات العطرية مثل الصندل. وبعضها متخصص في الأعمال الأدبية فقط مثل المكتبة التابعة لبيت الأدب . يحظى الجزء المخصص لكتب الأطفال بعناية كبيرة من المكتبات ، حيث تخصص له مساحات واسعة، كثيرا ما تحتل طابقا كاملا مزودا بركن الألعاب الذي يضفي جوا محببا للأطفال ، كما يتيح الفرصة للآباء أو الأمهات للتجوال في أرجاء المكتبة بحرية .

أما أكثر المكتبات التي أفضل ارتيادها فهي المكتبة الرئيسية في " كونج شتراوسة " ؛ فهي مكونة من أربعة طوابق ، وبها ركـن كبير للكتب الإنجليزية وهو ما يتيح لي فرصة جيدة للتعرف على عناوين الكتب وتصفحها .

لاحظت مثل هذه الأجواء المشجعة على القراءة بشكل موسـع في المكتبة المركزية Stadbucherei المخصصة للقـراءة العامـة للجمهور ، والتي توفر أجواء غير اعتيادية تتيح الفرصة للزائرين للاستمتاع بالقراءة وتوفير كل أنواع الكتب المتخصصة والعامة .

تحتل المكتبة مبنى له معمار كلاسيكي مميز تعـود أصـوله لعمارة القرن التاسع عشر ، وكان أحد المهندسين الإيطاليين قد قام ببنائه في مطلع القرن التاسع عشر باعتباره قصرا خصصه الملك "ويليام الأول" كمقر لإقامة ابنتيه إلا أنهما تزوجتا قبل انتهاء البناء ، فانتقل إليه الابن الملك "ويليام الثاني" وقد تعرض المبنى للدمار في أثناء الحرب العالمية وأعيد بناؤه في عام ١٩٥٦.

تعتبر المكتبة جزءا من المكونات الثقافية العديدة التي تتميز بها شتوتجارت مثل المسارح المتخصصة للعروض المسـرحية (٢٩ مسرحا) و دور الأوبرا التي تحظى بسمعة طيبة في أرجاء ألمانيا باعتبار أن أوبرا شتوتجارت تحصل علـى المركـز الأول بـين عروض الفرق الأوبرالية الألمانية خلال السنوات الخمس الأخيرة.

وبسبب هذه الأجواء الثقافية المميزة تتعدد دور النشر أيضـــا فـــي شتوتجارت .

مساء اليوم قمت بزيارة السـيد أرمـــن فريـــدل Armin Friedl الصـــحفي فـــي صـــحيفة شـــتوتجارتر نـــاخريختن Stuttgarter Nachrichten في مبنى " بريس هاوس " الذي تصدر منـــه أكبـــر صحيفتين يوميتين في شتوتجارت و بعض الإصدارات الأخـــرى وكنت قد زرت المكان قبل أيام للتعرف على آلية الطباعـــة التـــي هالني أنها تستخدم الليزر بدلا من الميكروفيلم لأنه أسرع بكثيـــر. الهدوء الطاغي – مرة أخرى – سمة مميزة للمكان ، حتى في بهو المدخل الرئيسي .. وهو بالتأكيد مناخ مثـــالي للكتابـــة والعمـــل الصحفي . يعمل السيد فريدل في القســـم الثقـــافي الـــذي يصـــدر صفحتين يوميتين لملاحقـــة القـــراءات والعـــروض المســـرحية والموسيقية والأحداث الثقافية التي تمور بها شتوتجارت .

الجو العام لهذا المكان لا يختلف كثيرا عن مبنى الإذاعة ، حيث ذهبت للقاء الصديقة "إستر صعوب" Esther Sauob في مقر عملها وإجراء حوار إذاعي عن المشروع وانطباعاتي حول شـــتوتجارت باللغة العربية التي تجيدها "أستر" بشكل يصعب معه تصديق أنهـــا ألمانية أحيانا!! فهي تجيد الحديث باللهجة السورية تماما مثل أهل الشام (المهارة والإتقان والإخلاص مرة أخرى !) (أول احتفالاتي السرية بعيد ميلادي تجسد في زيارة أستر وزوجها وابنتهما اللطيفة

ماري التي استدعت بحركاتها الرقيقة أو الشقية أحيانـا تفاصـيل السلوكيات المشتركة بينها و بين ما تفعله ابنتي ليلى ، وقد كانـت هذه هي الفرصة الوحيدة التي أتيح لي خلالها تناول القهوة التركي الشائعة في مصر والشام والتي أعـدها طـارق – زوج أسـتر- باقتدار).

على ذكر القهوة ، فلا ينافس عدد المكتبات هنا سوى المقـاهي والبارات .. جربت عشرات المقاهي خلال الأيام الأولى لي هنـا حتى استرحت أخيرا إلى المقهى الذي اعتبرتـه مقهـاي الأثيـر ويدعى " كافيه شامليون " Café Chamcleon .. أمر عليـه كلمـا أتيحت لي الفرصة .أو كلما قررت زيارة بيت ومتحف " هيجـل " في غير أوقات الزيارة الرسـمية ! أتنـاول القهـوة المفلتـرة أو "الإسبيريسو" وزجاجة المياه الغازية (اعتدت مذاقها أخيرا) (فـي إحدى السهرات التي جمعتني وإنجو أخبرته عن معاناتي مع المياه الغازية التي يفضلها الجميع هنا فقـال ضـاحكا إن لهـا بعـض المميزات منها أنها أرخص في السعر ، ويمكنك بالتالي أن تطلبها ثم تهز الزجاجة جيدا!! وأغرقنا في الضحك).

كان إنجو قد اصطحبني في جولة مسائية – قبل يومين – إلـى عـدة بارات أتاحت لي اكتشاف سهرات الشـباب هنا .. بعضها لا يختلف كثيرا عن نظائره في القاهرة وإن لم أشاهد مكانا صاخبا مثل" الهارد روك كافيه" مثلا .. ولكني لمحت مساء اليوم مكانا في وسط المدينة مثل بار متخصص في موسيقى الروك .

أحببت مكانا يدعى(Sweet 212) بالشاشات المتلاصقة العديدة أعلى البار ، تابعت العشاق على الأرائك التي تنتشر بجوار الجدران على محيط المكان. ولم يكن هناك ما يختلف عن مثل هذه الأماكن في القاهرة ... ربما باستثناء أن الفتيات هنا يبدون أكثر بساطة وأقل تكلفا من المصريات اللائى يرتدن مثل هذه الأماكن في القاهرة .

عودة إلى كافيه شامليون .. ففي هذا المقهى اعتدت تدوين ملاحظاتي والتفاصيل التي أحتاجها لليوميات ، وتأمل النادلة التركية ذات اللون الخلاسي والشعر الأسود الجميل ثم تأمل الناس في المقهى والشارع على السواء، وتأكيد ائتلافي مع المكان و كأن لي فيه مقهى مفضلا ومستقرا و.. ثوابت!!

أما في الليل فقد ضيعت نفسي بعد محاولة لاكتشاف حياة الليل هنا .. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل ولم تعد لدي أي فرصة للحاق بالمترو .. الجو شديد البرودة والسماء بدأت تمطر بشكل غزير. لا أعرف مكانا قريبا تتجمع به سيارات الأجرة ، أو رقم الهاتف الذي يمكنني من الاتصال لطلب " تاكسي" . شاهدت سيارة أجرة تمر أمامي فأشرت لسائقها فتوقف . كانت هناك سيدة كبيرة السن تجلس إلى جوار السائق ... لم أكن أعرف العنوان لكنني أحفظ اسم محطة المترو القريبة من مقر سكني .

أخبرني السائق أنه سيوصل السيدة أولا، ولم أمانع بطبيعة الحال . عندما نزلت السيدة سألني مرة أخرى عن العنوان وأخرجت تذكرة مترو قديمة و أعطيتها له .. كتب العنوان على جهاز إلكتروني أمامه وأدركت أنه جهاز متصل بالقمر الصناعي مبرمج بخريطة المدينة كلها ، وما على السائق إلا اتباع الإشارات أمامه توضح له موقع السيارة والمكان الذي يقصده بينما يعلو صوت نسائي مميز - يماثل صوت السيدة التي تعلن أسماء المحطات في عربات المترو- يعطيه تعليمات بالاتجاهات التي عليه أن يسلكها حتى وجدت نفسي أمام البيت!! تطلعت مبهورا إلى الشاشة الإلكترونية توضح لي المبلغ الذي علي أن أدفعه - لا فصال ولا مساومات - وهبطت من التاكسي مدركا أنك في مدينة كهذه لن تضل طريقك ، أو تضيع .. فكل شيء هنا بقدر معلوم !!



الغابة السوداء

على امتداد البصر .. في الأفق البعيد التقت السماء بجبال مكسوة باللون الأخضر القاتم، الذي يبدو من بعيد وكأنه يقترب من اللون الرمادي الداكن .. وهتفت يا إلهي! هل هذه هي الغابة السوداء؟

سألت صديقي ومرافقي إرفين كروتين تايلر فأومأ بالإيجاب مبتسما قبل أن يوضح لي أنه مازال أمامنا بعض الوقت.. ثم اتسعت ابتسامته وهو يربت على " تبلوه " السيارة أمامه قائلا : ولكن لا تقلق ف "ألفريدا" تتولى الأمر بشكل جيد . كانت الطريقة الساخرة التي ينطق بها اسم ألفريدا بنبرة ريفية مقصودة تجعلني أضحك بصخب . كان هذا هو الاسم الذي يطلقه البعض هنا علي صوت السيدة المصاحبة لأجهزة الكمبيوتر المتصلة بالأقمار الصناعية في السيارات . وكانت السيدة "ألفريدا" تسيطر بالفعل علي كل شئ، موضحة المسافات قبل أي اتجاه مختلف في طريق السير إلى "هاوزاخ" – قرية صغيرة في الغابة السوداء – حيث كنا

في طريقنا إلي منزل خوزيه أوليفير الذي دعاني إلى هناك لزيارة المكان، والتعرف على هذا الجزء المختلف من الثقافـة الألمانيـة علي بعد نحو ١٥٠ كيلو مترا من شتوتجارت قريبا من الحدود مع فرنسا.

الشيء الوحيد الذي لا تمتلك "ألفريدا" السيطرة عليه هو سرعة السيارة؛ ففي ألمانيا تتميز الطرق السريعة بأنهـا غيـر محـددة السرعة، ولذلك فإن السير بسرعات مثل ١٦٠ أو ١٨٠ كيلو متـرا في الساعة هو أمر شائع هنا وشرعي تماما ، والمـدهش أنـه لا توجد حوادث رغم ذلك لأن الطرق مجهزة وواسـعة ، والجميـع ملتزمون بالقواعد العامة للقيادة .

بمجرد دخولنا الطريق الفرعـي المـؤدي إلـى (هـاوزاخ) أحسست بأنني انتقلت إلى جزء آخر من العالم؛ تحيط بنا الجبـال الشاهقة المكسوة بطبقة من التربة تسمح للأخضر الجميل أن ينمو أعلاها ، وللأشجار أن تصنع غابات جبلية ساحرة أعطت للمكـان اسمها المدهش.. "الغابة السوداء" .

وصلنا أخيرا إلى منزل خوزيه. استقبلنا مرحبا وكان قد عـاد لتوه من سويسرا، وأخبرنا أننا سنذهب لنشرب القهوة فـي بيـت أفضل صديقاته " جيزيلا " .. سرنا إلى منزلها مشيا ، محـاطين بالهدوء الطاغي والبيوت الصغيرة. استقبلتنا جيزيلا – وهي سيدة

بدت في عقدها الخامس ..شعرها الفضي الناعم قصير، وصــوتها المرحب الأجش يعكس قوة شخصيتها.قدمت لنا القهوة فـــي آنيـــة فضية في طاقم خاص أنيق تعتز به كثيرا لأنه يخــص أمهــا ولا تستعمله إلا لضيوفها المميزين كما قالت...البيت عصـــري جــدا وبالغ الأناقة يعكس ذوق صاحبته الرفيع والتي تجولت معي فـــي أرجائه.. وهو مكون من ثلاثة طوابق.. الأول به المكاتب لعملهـــا هي وزوجها هارتموت وغرفة نوم لأحد ابنيها ، والثـــاني يضـــم المطبخ والسفرة. أما الثالث فبه غرفة معيشة متسعة وباقي غرف النوم .

فتحت لنا زجاجة شمبانيا وقدمت لنا كيكة برقوق Zwetchgen kuchen أعدتها بنفسها، ودار بيننا حوار طويل عن ألمانيا ومصر، وصوت المؤذن ودقات أجراس الكنائس.

بدأنا أولي جولاتنا في طريق أسفلتي ضـــيق.. إلـــي اليمـــين تتراص البيوت.. أغلبها مطلية باللون الأبيض يعلوها سقف علـــى هيئة الخيمة مغطي بالقرميد الأحمر، وإلى يسارنا التلال الخضراء والغابة. توقفنا أمام أحد البيوت وقال لي خوزيه إنه كان يعيش هنا مع أسرته وأشقائه كلهم في الطابق الثاني. ثم أضاف ضاحكا إنـــه لذلك قرر الانتقال للحياة عند جيزيلا ليستطيع الكتابة وكانت علاقته قد بدأت بها عندما كان يدرس لأبنائها ثم أصبح صـــديقا مقيمـــا..

وأدت هي دور الأم الروحية ودفعه بشكل مستمر في طريقه كشاعر له صوته المميز .

انتهي الطريق بمنطقة المقابر : مساحة خضراء شاسعة تتوزع بها الشواهد، وتوجد أمام كل منها مجموعة من الورود الملونة التي يضعها أهل الراحلين في ذكرى الرحيل ..أوجعني قلبي أمام مقابر الأطفال.. بعضهم مات وعمره أيام.. وبعضهم بلا أسماء! ورفعت عيني إلى السماء ولاحظت أنها قريبة جدا، وعاودتني حالة السكينة.. لكن الأسئلة عن مصير هؤلاء الأطفال وأسباب موتهم لم تتوقف .

مررنا علي بيت شقيق خوزيه "أوخينيو" Eugenio وزوجته "كريستيانا" Christiana اللذين اقترحا استضافتي في بيتهما خلال فترة وجودي في "هاوزاخ" ، وتبرعت ابنتهما الصغرى " كارمن " بغرفتها من أجلي ودعتني لمعاينتها ووضع حاجياتي بها .. غرفة طفولية .. تمتلئ جدرانها بالملصقات لفرق غنائية ونجوم البوب، بينما تتدلى من السقف شبكة بلاستيكية أسطوانية تضم كل ألعابها، وعلي الجدار المقابل للسرير وضعت ملصقا كبيرا لمشروع "رواة المدن" وهو نفس ما فعلته شقيقتها الكبرى " آنا تريزا " التي أضافت ملصقا لصورة مطربتها المفضلة الكندية أفريل لافين Avril Lavigne . على جدران غرفتها.

المركز الثقافي الأسباني Centro Cultural Espanola كان هدفنا في المساء، في مكان قريب من "هاوزاخ" وهو مبني صغير يعتبر ملتقى الألمان من المهاجرين الأسبان الذين استقروا في ألمانيا ، ومنهم أهل خوزيه الذي تمتد أصوله لأسبانيا . كان المكان معبئا ببعض الرجال الذين التفوا حول إحدى الطاولات للعب الورق، وعلى طاولة أخرى جلست مجموعة من السيدات المتأنقات يلعبن "البنجو" .. رحبت بنا "ماريا" راعية المكان.. قمحية، شعرها أسود قصير، وتشبه ملايين السيدات المصريات.. صوتها عال وله بحة مميزة وتقطع كلماتها المتتالية بضحكة صاخبة ممتدة. تتحدث الألمانية بلهجة ركيكة وتكمل الحوار بالأسبانية ، ويفهم البعض ثلاثة أرباع الكلام ويترجم خوزيه الباقي ، أما أنا فأفهم ما تقوله بقلبي، وألا حق ضحكاتها بضحكات صاخبة أبدو معها وكأنني أتقن الأسبانية وأتحدثها بطلاقة!

تعود أصول "ماريا" إلى الغجر، وكانت أمها قد تزوجت وأنجبت ولدا وبنتين هما ماريا وأنطو نيا ، وتوفي زوجها مبكرا، ورفضت أن تتزوج مرة أخرى بعد زوجها الذي كانت ترتدي الأسود حدادا عليه. ولم تخلعه حتى الآن!! هاجرت إلى ألمانيا وهي لا تعرف القراءة أو الكتابة وعاشت في هذا المكان وربت

أطفالها وهي ترتدي اللون الأسود . ومنذ ذلك الوقت علقت صورة أمها في سلسلة تتدلى من عنقها لم تخلعها حتـى الآن. ذكرتنـي بقصص السيدات كبار السن في فلسطين اللائـى يعلقـن مفـاتيح بيوتهن القديمة – التي هجرنها تحت ضغط الإسرائيليين – علـى صدورهن على أمل العودة يوما .

في اللحظات القليلة التي كنت أشرد فيها أسأل نفسـي.. أيـن أنا؟! هل أحلم ..يخرج طيف من روحي خارج المكـان ليتأمـل الجبال المحيطة بنا والغابات.. أشعر أنني بعيد عن وطنـي آلاف الأميال، ومع ذلك لا أشعر بالغربة، بالعكس كان الجـو عائليـا، والدفء والحرارة التي يتعامل بها الجميع هنا تـذكرني بـأجواء مصر ، وملامح الوجوه الشرقية تؤكد هذا الإحساس ..

تناولنا أطعمة فريدة: فطائر البيض Tortilla Espanola ونقـانق الكالاماري المقلية والجمبري والسمك، وطبقًا ضخمًا امتلأ بـالأرز الذي دفنت فيه المأكولات البحرية Paella وتنطق(با إيجا)–عرفت لاحقا أن أصل الكلمة هو كلمة "بقيا" العربية وهي من آثار الأندلس على ما يبدو– ويظهر زوج ماريا.. له ملامح شـرقية هادئـة .. وتحكي ماريا لجيزيلا التى تجلس إلي جواري أن زوجها هـادئ جداء وأنه عندما تشتعل الحرائق يذهب فـورا لشـراء السـجائر!

وتضحك، ثم تقول لو لم يكن الأمر كذلك لا نفجر البيت منذ وقت طويل.. وأضحك !

في الليل .. وحيدا في غرفة الصغيرة كارمن.. يحيطني الصمت والطمأنينة اللانهائية.. بينما صوت وضحكات ماريا لا تفارق سمعي.. ولعلها ستسيطر على وجداني لزمن طويل!





الغابة السوداء ٢

" جددت حبك ليه ؟! بعد الفؤاد ما ارتاح ؟"! .. يا إلهي أين أنا؟ .. هكذا هتفت لنفسي عندما استمعت إلى صوت " أم كلثوم " الأسطوري. التفت إلى خوزيه فوجدته ينظر إلي مبتسما .. وهو يقول : هل تعجبك الأغنية ؟ ابتسمت له مؤكدا إعجابي ثم نحيت نظري باتجاه نافذة السيارة إلى يميني لأخفي تقلص ملامح وجهي بسبب اضطراب مشاعري ؛ نقلتني الأغنية إلى زمن آخر بعيد ، وعلقت بصوت خافت : يا إلهي ..أم كلثوم في ألمانيا ؟!

لا أعرف لماذا استدعى صوت أم كلثوم وجه ملاكي الحارس ومعه مقاطع أحفظها من شعر الحلاج : " أنا من أهوى ومن أهوى أنا/ نحن روحان حللنا بدنا / فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا/ أيها السائل عن قصتنا / لو ترانا لم تفرق بيننا / روحه روحي وروحي روحه/ من رأى روحين حلت بدنا؟ " .

أقاوم الإحساس بالإنهاك و التعب ؛ فقد بدأ هذا اليوم مبكرا. حضر خوزيه إلي منزل شقيقه حيث أقيم لتناول الفطور الذي

أعدته لنا كريستيانا وشاركنا أوجينيو . انطلقنا بعدها أنا وخوزيه إلى الكنيسة القريبة ؛ فاليوم هو عيد الشكر ، وأغلب أهل "هاو زاخ" انطلقوا إلى هناك للصلاة والاستماع إلى موعظة القس.

لفني نفس الشعور بالسكينة الذي ينتابني عند دخول أي كنيسة أو مسجد ، وأدركت أنني على الرغم من كثرة ترددي على الكنائس في مصر ، إما لحضور حفلات الأكاليل أو لزياراتي الخاصة بشغفي بالأماكن المقدسة القديمة في مصر مثل الكنيسة المعلقة ومنطقة "مار جر جس" إلا أنني لم أشهد طقوس الصلاة وبينها الركوع على خشب المناضد التي يجلس إليها المصلون والتي آلمت ركبتي ولكني حاولت احتمالها حتى النهاية. استمعت إلى الترانيم التي يؤديها الشباب بشكل له طابع عصري وربما لذلك لم يكن لها نفس التأثير العميق للترانيم التي سمعتها في الكنائس المصرية.

أكثر الأسئلة التي أسعدتني – هنا في هاوزاخ أو في شتوتجارت – هل أنت مسلم أم مسيحي؟! أبتسم للسؤال راضيا ومفضلا عدم الإجابة لأن السؤال ضمنيا يحقق قضيتي الأساسية؛ وهي أننا مصريون أولا وأخيرا بغض النظر عن الديانة . ومع ذلك فإنني ، في النهاية أضطر لتوضيح انتمائي للثقافة الإسلامية التي ضربت في العصر الأندلسي مثالا رائعا في التسامح والتعايش

مع الآخر أيا كان ، وهو أيضا ما كان عليه الأمر في مصر طوال القرن الماضي لولا الغبار الذي أثاره ظهور الجماعات الإسلامية المتطرفة في أواخر السبعينيات ..

بعد الظهر قمنا بزيارة أحد المزارعين وزوجته في قرية قريبة. أذهلني مشهد الخضرة الرائعة على التلال التي يطل عليها البيت.. مساحة خضراء ممتدة تعلو تدريجيا لتنتهي بالأشجار التي تتكاثف في أعلى التل . مستوى النظافة غير طبيعي في مزرعة تمتلئ بالأبقار والدواجن . ويعتمد صاحب الأرض على إطعامها من زراعته . وحتى مظهره وزوجته نظيف وبالغ التحضر. (من قال أن الغنى أو الفقر له علاقة بالنظافة !!) .

أعدت لنا كعكة (البلاك فورست) الشهيرة هنا فنحن في الغابة السوداء نفسها والتي تختلف عن الشائعة في مصر بنفس الاسم .

القراءة الأولى لي هنا جمعتني مع خوزيه و شهدت حضورا جيدا وتفاعلا تمثل في ردود الفعل في أثناء قراءة خوزيه لنصوص يومياتي عن شتوتجارت ونصوصه عن القاهرة. تمنت جيزيلا لي الحظ ، وهو ما تحقق بتفاعل الحضور، وقلت لها باسما إنني أحسد خوزيه على صداقتها له..

بعد انتهاء العشاء وانصراف الجميع .. اصطحبني خوزيه إلى منزل شقيقه ..تحدثنا طويلا عن القراءة والأمسية والمفارقات ..

ثم حل الصمت لوهلة .. قلت: لو أننا نسير في الشارع في مصـــر في مثل هذا الوقت لأحاطنا نباح الكلاب من كل مكان . ابتســـم.. وقبل أن يرد سمعت عواء أحد الكلاب فجأة وضحك قائلا : يبـــدو أنهم سمعوك !

تأملت البيوت والسماء وأنا أستنشق الهـــواء بعمـــق .. كـــأنني أحاول الاحتفاظ برائحة وملامح الليل الحنون في.. الغابة السوداء.



أنت تستمع إلى المدينة أو تراها بأذنيك .. هكذا قالت لي شاعرة ألمانية بعد انتهاء القراءة مساء اليوم من يومياتنا عن القاهرة وشتوتجارت وأضافت أن ما قرأته يذكرها بالفنان التشكيلي الأمريكي إدوارد هو بر Edward Hopper الذي يلعب بالضوء والظل ببراعة،ما يضفي الإحساس بصمت الأماكن أو صخبها في لوحاته.

كان الحضور جيدا ، وأسعدني حضور بعض الأصدقاء ومنهم "أوجينيه" الفرنسية الرائعة التي تعيش مع زوجها الألماني بين فرنسا وشتوتجارت ، وقد عاشا فترة من حياتهما في اليمن ، وهو ما أتاح لي تبادل بعض الكلمات العربية معها.. و"كريس" الذي أعطاني فكرة جيدة عن تاريخ العمارة في شتوتجارت وتطورها في الوقت الراهن بوصفه مهندس ديكور ، وهو ما لمسته في ديكور شقته الحديثة عندما دعاني لتناول العشاء وصديقه ألكسندر. بالإضافة إلى الكثيرين من بيت الأدب والأصدقاء . الملاحظة

الوحيدة أن الجمهور لم يسألنى شيئًا باستثناء سؤال وحيد عن رأيبى فى العلاقات بين الجنسين فى ألمانيا ولم تكن لدى إجابة !

بعد انصراف الجميع بقينا أنا وخوزيه وفلوريان هـولرر فـي حوار موسع عن الأدب الألمـاني والعربـي والسياسـة .. كـان إحساسي يتصاعد بأنني أفعل كل شيء هنا للمرة الأخيرة ، فالرحلة أوشكت أن تنتهي ، وغدا هو آخر أيامي هنا في شتوتجارت بسبب معرض فرانكفورت ، حيث سأنتقل للمشاركة في بعض فعالياته .. بعد انتهاء هذه السهرة بدأت أشعر بانهيار طاقتي التـي حشـدتها طوال الفترة الماضية ..



حين تركنا الجسر.. أردد منذ الصباح هذه العبارة وهي في الأصل عنوان إحدى روايات الكاتب العربي عبد الرحمن منيف.. لكنها ترتبط عندي بفراق الأماكن والرحيل .. تجولت طويلا مع خوزيه في الصباح ، وفي المساء تجولت قليلا بمفردي. استوقفتني ثلاث فتيات وتحدثت إحداهن معي بما لم أفهمه ، فاعتذرت لها موضحا أنني أتحدث الإنجليزية فقط ... فكررت ما قالته بالإنجليزية و فهمت أنها طلبت مني سيجارة .. أعطيتها إياها فسألتني إذا ما كنت إنجليزيا ؟ ونفيت الصفة مندهشا وأنا أقول:لا لا أنا مصري، فوسعت ابتسامتها و هي تقول: nice.. nice و لكني كنت متشككا أنها تعرف شيئا عن مصر من الأساس!

في طريقي لقضاء السهرة الأخيرة مع بعض الأصدقاء .. شعرت ، بعد خروجي من محطة المترو ، أن هناك من يتبعني.. قلت لنفسي إنه لا يوجد ما يستوجب القلق ؛ فشتوتجارت هي المدينة الأكثر أمانا بين باقي المدن الألمانية .. ومع ذلك قررت أن أوسع خطواتي قليلا ..لكنني سرعان ما توترت لأنني تأكدت من

ملاحقة أحد الأشخاص لي! قررت أن أبطئ خطواتي قليلا لأتعرف إلى ذلك الشخص الذي يتتبعني بمثل هذا الإلحــاح ، وأنــا أفكــر بسرعة في كل الاحتمالات الممكنة و احتمالات المواجهة مستدعيا تراث الأفلام الأمريكية الذي تعرفنا منه ارتباط الشوارع بالخطر! وسمعت صوتا نسائيا يحييني بحماس .. نظرت إليهــا مندهشــا . كانت في عقدها الرابع .. شعرها قصــير.. ملامحهــا هادئــة .. اتسعت ابتسامتها وهي تقول ألست أنت الكاتب المصري؟! ، قبــل أن أجيبها بشيء قالت : لقد حضرت القراءة بالأمس . ســألتها إن كانت قد أعجبتها فقالت نعم .. ثم قالت : "تأثرت كثيرا بالمقــاطع التي كنت تقرؤها بالعربية مع تلك الموسيقى في الخلفية .. كنــت أشعر بما تقوله رغم أني لا أفهم شيئا" ، ونظــرت بســعادة إلــى السماء فقد أهدتني شتوتجارت هذه الهدية الرائعة .. كأنما لتؤكد لي المشاعر المتبادلة بيننا.. شكرتها وسألتها عما تفعله فقالــت إنهــا مهتمة بالعلوم الروحية ، وإنها منذ سنوات تتمنى أن تعطي دروسا في هذا المجال وإنها عادت لتوها من أول حصة تقوم بالتــدريس فيها. تمنى كل منا للآخر التوفيق وأمسية ســعيدة .. وانصــرفت منتشيا.

قبل أن أختتم اليوميات بنص يلح علــى ذهنــي مــن إحــدى قصصي (الأخضر الجميل يشحب تدريجيا) أود أن أوجه الشــكر

إلى القائمين على المشروع وإلى فريق العاملين ببيت الأدب شتوتجارت .. إيمي و شتيفاني وإرفين والسيد هولرر على ما بذله من جهد ومرونة ولطف وكرم بالغ وحسن استضافة .

كما أشكر الأصدقاء إنجو وكريس وهانا وأوجينيه وألكسندر على استضافتهم وحسن الصحبة .. ومن هاوزاخ : ماريا وايجينيو وكريستيانا والرائعتين آنا تريزا وكارمن ، وبالتأكيد جيزيلا التي أعطت لرحلة هاوزاخ مذاقا خاصا وزوجها هارتموت .

ومن برلين أشكر الدكتورة سونيا حجازي على الاستضافة والصحبة .

أشكر أيضا السيدة بترا أولشفسكي على حسن الاستضافة والسيدين يواخيم كالكا وأرمن فر يدل وفابيان ويتر واستر صعوب.. كما لا يفوتني أن أشكر المترجمتين هيلينا عجوري ومارتينا ستيل..

وبلا حدود أشكر فريق العمل في معهد جوتة بالقاهرة وخاصة لينا أبو لبن التي تابعت معي التفاصيل وبلا كلل لحظة بلحظة وعثمان حجار وكريستيان يونجه وشرين فقوسة وغادة الشربيني والسيدة اليزابيث بيروت وإنجو فيتسل وبالتأكيد .. عميق شكري وامتناني للسيد يوهانس إيبرت مدير معهد جوتة بالقاهرة الذي أتاح لي الفرصة لهذه الخبرة الرائعة .

وشكر خاص من أعماق قلبي للصديق خوزيه أوليفيـر علـى الأوقات الرائعة وخاصة الرحلة إلى الغابة السـوداء ، والصـديق إرفين كروتنتايلر الذي أعطاني الإحساس بوجود أخ أو شقيق لـي يعيش في ألمانيا .

أما الرائعة كورينا رايمولد فلن يكون بإمكان كلمات الشـكر أن توفيها حقها على ما بذلته من جهد في متابعة تفاصـيل البرنـامج وتذليل الصعاب والاقتراحات وقراءة الخـرائط والإجابـة عـن الأسئلة، وصبرها الذي يفوق احتمال البشر على اتصالي للسـؤال عن اتجاهات قطارات المترو – المكـررة أحيانـا– والاتصـال بالمترجمة للتدقيق وحسن الصحبة.. شكرا كورينا ..

وأخيرا.. شكرا بغير حدود إلى.. ملاكي الحارس!

" .. فتحت عينيها فجأة . تأملت لونهما الأخضر الجميل وقـد انعكست عليه أشعة الضوء الشاحب القـادم مـن جهـة النافـذة. وابتسمت لها رغم الشجن الذي امتلأت به أعماقي . إذ كنت أعرف أن الأخضر الجميل سيشحب تدريجيا لينضم إلى قافلة عيون الأحبة الغائبين هذه التي ستوقظني حتما فـي أعمـاق الليـل وتـؤرقني طويلا.. طويلا" .

"ورأيت نورا في الغرف و قلت في نفسي ربما رأتنـي مـرة أخرى فهي تحبني" .

ولمحت الفتى وفتاته الشقراء مرة أخرى في طريق العودة.. وأحسست بالبرودة تحاصرني .. وفي ذهني دار السؤال عما إذا سيكون بإمكانهما العودة إلى هذا المكان معا مرة أخرى أم لا !!

ألقيت نظرة أخيرة على متحف هسة ولمحت السيدة الجميلة من النافذة !!

" وما من مرة لامست يدها يدي أو فمها فمي .. في الحلم فقط، حدث لي هذا عدة مرات في الحلم فقط "...

"ورحلت بعيدا إلى مدينة أخرى"!!



خارج اليوميات

مشـاهد صـامتة

هنا أو هناك لا تختلف هيأتهم أبدا ؛ بملامح وجوههم المتجهمة الصـارمة ، وتربصهم الكامن ، كما تشي به هذه الملامح الحـــادة ، لكن أفراد الشرطة هنا يسيرون في ثنائيات : رجـــل وامـــرأة .. يرتدي كل منهما قميصا أصفر قاتما وبنطلـــون (كـــاكي) تتجلـــى أناقتهما للعيان .. يجوبان الشوارع والطرقات بدأب ســيرا علـــى الأقدام ويؤديان مهامهما بنفس الكفاءة .

كنت أحاول العبور إلى الجهة الأخرى من الشـــارع الرئيســـي قريبا من مركز المدينة ، فقررت أن أسلك طريقا سفليا عبر محطة مترو الأنفاق ، وعندما صعدت من الجهة الأخرى فوجئت بمشهد رجل وامرأة : شرطيان ، كانا قد أمسكا بشاب غليظ الملامح حليق الشعر وطرحاه أرضا وقيدا يديه خلف ظهره بينما تقوم الشـــرطية بإخراج ما في جيوبه : المحفظة .. علبة سجائر..ميدالية مفـــاتيح ولفافة ورقية صغيرة .

كان الفتى الملقى على بطنه يحاول النظر إليهما مديرا رأســـه إلى الخلف بأقصى ما يستطيع وملامح وجهه تعكس نوعـــا مـــن الهدوء المدهش . عندما انتهت الشرطية من مهام التفتيش أخـــذت

تقلب فيما عثرت عليه من أوراق وغيرها ، بينما كان الشرطي يمسك به ويوجه له أسئلة ، والفتى يرد بهدوء رغم الموقف الصعب الذي يعانيه . ولم أستطع أن أفهم التهمة التي أوقف بمقتضاها الشرطيان هذا الرجل .. قد يكون متعاطيا أو متاجرا في المخدرات ، أو ربما متسولا.. أو ثبت وجوده في ألمانيا بأوراق غير شرعية .. وشعرت بالغضب لعدم معرفتي للغة الألمانية في تلك اللحظة فربما كان بإمكاني فهم الحوار الدائر بينهما على الأقل .

بعد نحو يومين، وقريبا من نفس المكان التقطت أذناي لغطا بدا لي نشازا في هذه المدينة شديدة الهدوء . لم أستطع تحديد الجهة التي تأتي منها هذه الجلبة ، حتى شاهدت فجأة مجموعة من المتظاهرين يمرون في الطريق العام نفسه . كانوا قرابة مائتي شخص يسيرون ببطء وهم يرددون بعض الشعارات الحماسية تتقدمهم سيارة شرطة وتسير خلفهم سيارة أخرى بينما ارتفعت الأصوات بما لم أفهمه . أسرعت راكضا باتجاه شخص كان يقف على رصيف الشارع ينتظر مرور المظاهرة ليعبر إلى الجهة الأخرى . ناديت عليه مرتين متعاقبتين فلم يلتفت إلي ، فأمسكت بكتفه . نظر إلي مندهشا . سألته مبتسما وأنا أشير إلى المظاهرة : ماذا يقولون ؟

جذب سماعة الـ " وكمان " التي كان يضعها في أذنه ، وأخذ يصيخ السمع لوهلة ثم نظر إلي قائلا وهو يهز كتفيه بعدم اكتراث: لا أفهم شيئا مما يقولونه ... ثم إنه وضع السماعة في أذنه مرة أخرى وبدأ يعبر إلى الجهة الأخرى من الشارع بينما ظللت واقفا أرقب أشباح المتظاهرين التي ابتعدت قليلا عن مرمى بصري يأكلني الفضول أو يكاد لأعرف ما يغضب له الناس في مدينة جميلة مثل شتوتجارت وفي بلد متقدم مثل ألمانيا بشكل عام .

في بلد كهذا ، بكل تقدمه ومراعاته لحقوق مواطنيه وتقديسه للحرية بالشكل الذي تبدو فيه وكأنها عقيدة تبلغ حد القداسة ، ومع ذلك فما زال الناس غاضبين فماذا يتوجب على الشعب المصري أن يفعل؟! (الشعوب عندما تعرف أن لها حقوق تتوقف عن استهلاك نظرية المؤامرة) .

المناقشات التي دارت مع الكثيرين في الأيام اللاحقة كشفت أن هناك بعض المتاعب التي يشكو منها الألمان وعلى رأسها البطالة وفرص العمل المستديمة والأزمة الاقتصادية التي تؤثر على الجميع بدرجات متفاوتة لكنها تسبب غضبا حقيقيا لدى الكثيرين وخاصة الشباب كما لاحظت.

النموذج الأمريكي

أنتم أيضا تفعلون ذلك؟!

سألتني كورينا عندما كانت تخبرني عن موضة إقامة حفلات أعياد ميلاد الأطفال في مطاعم "ماكدونالدز" في ألمانيا ، فعلقت قائلا : نحن أيضا نعاني من هذه الموضة في مصر . ضحكنا من الظاهرة التي بدت لنا ذات طابع عولمي جرتنا إلى مناقشة الأفلام الأمريكية التي شاهدها كل منا مؤخرا ، ثم عدنا بذاكرتنا إلى تاريخ من تراث السينما الأمريكية الذي أثر فينا ؛ هي التي نشأت وعاشت حياتها في ألمانيا ، وأنا الذي قضيت عمري في مصر والمنطقة العربية ، وعندما أخبرتني أنها تتابع بشغف وصرامة حلقات المسلسل الأمريكي " الجريء والجميلة" تأففت ساخرا من هذا التفضيل لمسلسل أعتبره مملا بشكل بشع ، فضحكت وهي تقول لي أن رد فعلي أتى مماثلا تماما لردود أفعال أصدقائها من الألمان عندما تؤجل موعدا لمشاهدة حلقة من حلقات المسلسل.

في مساء أحد الأيام التي لم يكن برنامج زيارتي مشغولا بأي لقاءات أو زيارات قررت حضور قراءة في بيت الأدب لكاتب أمريكي هو "جوناثان ليثم" بمناسبة صدور ترجمة روايته (حصن

العزلة) إلى الألمانية . قرأ هو أجزاء من الرواية بالإنجليزية بينما قام الناقد الألماني "يواخيم كالكا" بقراءة الترجمة الألمانية ، كما قدم العمل والكاتب وأدار النقاش الذي أعقب القراءة مـــع الجمهــور . بدت الرواية من الأجزاء التي قرأها الكاتب تستفيد كثيرا من الثقافة الشعبية الأمريكية ، لكن ما لفت انتباهي هو الطريقة التـــي كـــان الكاتب الأمريكي يتحـــدث بها بعد النقاش . كان متحدثا لبقا واثقـــا من نفســـه ومما يقوله .. لا يستخدم عبارات من قبيـــل " أظن" أو " أعتقد " ، وإنما يعرف تماما ما يريده ، وما فعله في كتابه .. فهو قادر تماما على أن يقرر حقائق ، وهي طريقة تخيب ظني كثيـــرا فيمن يستخدمها لأنني على قناعة بأنه لا يمكن أن يكون هناك وجه واحد لأي شيء .. أشك كثيرا في المطلقات وأعرف أنهـــا كانـــت السبب الرئيسي في تدمير العالم .

بعد انتهاء القراءة انضممت إلى مائدة العشاء فـــي مطعـــم دار الأدب على شرف الكاتب الأمريكي الذي علق عندما عرف بكوني مصريا قائلا : تربطني علاقات قرابة بالمصريين ، وعندما سألته فهمت أن ابنة عمه هي زوجة الدكتور سعد الدين إبراهيم، وهتفت: يا إلهي.. هذا عالم صغير!

سألته عن خريطة الأدب الأمريكي المعاصر وغموضـــها فـــي إطار الاحتفاء الإعلامي الكبير بالأعمال الروائية (البست ســـيللر)

والتي لا تعبر عن مستوى أدبي مميز ، رغم ما تحققه من أرقام توزيع هائلة ، فعقب موضحا أن هذه الخريطة خريطة كبيرة بالفعل يصعب حصرها لكنه أشار إلى أسماء بعض الكتاب المهمين في الولايات المتحدة الآن مثل : "فيليب روث" و"جوناثان فرانزين" أو "بول أوستر" وغيرهم ، وأضاف أن هناك بعض الدوريات المتخصصة التي تؤدي دورا جيدا في تقديم الأعمال الأمريكية التي تتضمن قيما أدبية وفنية رفيعة مثل (لندن روفيوز أوف بوكس) بشكل خاص.

النقاش الذي دار بيني وبين فلوريان هولرر – مدير دار الأدب شتوتجارت – بعد انفصالنا عن هذه المجموعة دار حول الأسلوب الأمريكي ، وبدا هولرر متحيزا تماما لهذا الأسلوب أو ربما أكثر تفهما له باعتباره أسلوبا يعرف من خلاله الشخص أن يقدم نفسه جيدا وبشكل احترافي وأن يكون على أعلى درجة من القدرة على الإقناع والتأثير. قلت له إن هذا يصلح مع شخصيات بسيطة على قدر محدود من المعرفة ولكني لا أظنه مناسبا لوسط من القراء الذين يمتلكون قدرا معقولا من الثقافة، وقلت له إنني أعتقد أنه في حالة كتاب آخرين أكثر عمقا مثل "فيليب روث" أو "سوزان سونتاج" لما تحدثا بهذا اليقين ، لكنه كان يرى أن الأسلوب الأمريكي أسلوب يستخدمه الجميع هناك وضرب لي عدة أمثلة

مستندا إلى خبرته حيث إنه أنجز دراساته العليـــا فـــي الولايـــات المتحدة التي عاش فيها خمس سنوات من عمره دلل بهـــا علـــى الطريقة الأمريكية التي تعتمد كثيرا على طرق مختلفة للاتصـــال والقدرة على الإقناع . يبدو أن الأسلوب الأمريكي هو قدر العـــالم خلال السنوات القادمة ..

الليل وآخره ..!!

في شتوتجارت يبدو كل شيء هادئا بما في ذلك حياة الليل..كنت قد تجولت مساء إحدى الأمسيات و حتى انتصاف الليل مع إنجو في مجموعة من البارات والحانات والتي تختلف عن بعضها في الجو العام الذي يميز كل منها ؛ وهو ما أشرت إليه في واحدة من اليوميات ، لكني كنت أريد اكتشاف عالم الليل والملاهي الليلية ، وهذه كان علي أن أكتشفها بنفسي ؛ فقد تحرجت أن أسأل عنها ، ولم أكن أتوقع أن يصحبني إليها أحد لأن الجميع لديهم أعمالهم في الصباح ، كما أن سهرتي مع إنجو في البارات أصابته بصداع شديد خلال اليوم التالي ، تماما كما فعلت معي ، لكن الفارق الوحيد أنني لم أكن مضطرا للاستيقاظ مبكرا للذهاب إلى العمل مثله . على أي حال لم يكن من الصعب العثور على مثل هذه الأماكن ؛ فقد لاحظت خلال جولاتي الصباحية واجهات بعض المحال التي تعلق على واجهاتها صورا ضخمة لفتيات عاريات وكان بديهيا أنها محال أو حانات متخصصة في عروض التعري والرقص العاري.

كنت ميالا لأحد المحال التي لاحظتها أثناء تجوالي في المنطقة التجارية في الصباح ..ربما لأني استطعت تحديد مكانه بشكل

واضح وهو ما سوف يجنبني احتمالات الدخول في متاهات فقدان الطريق ، أو لأن الصورة العارية الضخمة المعلقة خارج المكـان بدت لي أنيقة ، بها لمسة من عدم الابتذال، وربما لأن اسم المحل نفسه كان مغويا كونه ذا دلالة بأشهر أماكن العروض الراقصة في فرنسا (مولان زوج).

بعد أن شجعت نفسي وأخذت قراري بالدخول إلى الباب المحاط بالأضواء النيون الحمراء المتوهجة وجدت درجا طويلا يتجه إلى الأسفل ، ومغطى ببساط وثير باللون الأحمر القاني ، وعند نهايته ينحرف إلى اليمين بعدة درجات أخرى ، حيث وجدت نفسي فـي مواجهة سيدة أنيقة متوسطة العمر تكتسي ملامح وجههـا بلمسـة آسيوية تجلس أمام مكتب صغير . سألتها عن المطلوب فقالت إن بإمكاني مشاهدة العروض كيفما شئت مقابل عشرة يـورو ، وأن هذا المبلغ يتضمن مشروبا ، وأنني إذا رغبت فـي أي مشـروب إضافي سيكلفني خمسة يورو . أعطيتها المبلغ ودلفت من البـاب الصغير إلى يساري.

كانت الإضاءة في الداخل خافتة مقارنة بالأضواء الساطعة في الخارج . إلى اليمين وتقريبا بمحاذاة الباب الذي دخلت منه كـان هناك بار أمامه عدة مقاعد احتلتها مجموعة من الفتيـات اللائـي أدرن ظهورهن للبار وجلسن مواجهات للصالة التي تتضمن ساحة

الرقص والمناضد الموزعة بسيمترية على هيئة مستطيل نـاقص ضلع بمحاذاة جدران المكان . كانت الفتيات رشيقات يرتدين أزياء قصيرة ضيقة ، لكن ما أربكني هو تحديقهن في كل زائـر جديـد بملامح ميتة بلا معنى ، إلى اليسار كان هنـاك مجموعـة مـن الأركان كل منها يضم منضدة تحيط بها ثلاث أرائـك ، اتجهـت صوب إحداها وجلست مواجها البار ، ولم يكن هناك أحد باستثناء رجل أمريكي قوي البنيان جلست بصحبته فتاة شقراء من فتيـات الملهى تحاول إقناعه بدعوتها إلى شراب ، وأمـام البـار جلـس شخص آخر كان يتناول شرابه في هدوء.

الجدار الخلفي للبار مغطى بالمرايا ، وكذلك السـقف ، وهـي ميزة لن أدرك قيمتها إلا بعد مشاهدة عروض التعري حيث كانت المرايا تتيح المشاهدة من كل الزوايا . وكانت هذه العـروض قـد بدأت أثناء جلوس فتاة شقراء نحيفة إلى جواري تعرض علـي أن أدعوها إلى مشروب . عرفت أنها تشيكية . لكنها بدت لي باردة ، تتحدث كأنها آلة ميكانيكية تم برمجتها بتسجيل صوتي آلي خـال من أي ملامح بشرية . فاعتذرت لها مبتسما ، وأوضحت لهـا أن هذه هي المرة الأولى لي التي أحضر فيها عروضا من هذا النوع، وأنني أرغب في مشاهدة الراقصات أولا ثم أفكر في اقتراحها..

لكن فتاة أخرى كان تأثيرها مختلفا تماما..

قالت اسمي "أزميرالدا" وابتسمت بدهاء العارفين أو كما يفعــل مدّعو المعرفة عادة . انتشيت لابتسامتها الدافئة مثل بحة صـــوتها وسمارها الذي يماثل مخفوق رائق لمزيج من الحليب والقهوة التي تتوارى بقوتها لتضبط النسبة الجينية البديعة لبهاء اللون الخمري القادم من غرناطة إلى هذا المرقص الليلي لا لشيء إلا ليأسرني أنا الذي أخرجت "أزميرالدا" "فيكتور هيجو" من روايته البديعة وعشت معها أحلام يقظة استولت علـــى صـــباي ومراهقتـــي وشـــبابي ، وجعلتني أطوف حـــــول مبنـــى "كاتدرائيـــة نـــوتردام" طـــواف المخلصـــين ، أتقصى آثار أقدامها الحافيـــة علـــى بـــلاط الأرض حول المبنى طوال نهـــار كامل ، ثم استدعتني لـــيلا مـــن أمـــام جســـر ألـــ(point neuf) حيث كنت أرقب هيكل الكاتدرائية وهي غارقة في ظلام ليل باريس ، أتخيل الأحدب جالسا بجوار الجرس العتيق حارسا لغفوة الملاك التي استدعتني إليها عبثـــا ، فرحـــت أبحث عنها في صورة من أحببت تباعا وحتى يئست . ها هي الآن تجلس أمامي تعرض علي أن ترقص لي رقصة خاصة وهي تغمز بعينيها غمزة تقرب ما بيننا من عوالم ومسافات .

أسالها إن كانت سترقص فتومئ بالإيجاب فأؤجل اقتراحها إلى ما بعد الرقصة . على البار الحديدي تحولت إلى جنيـــة ســـاحرة

تلبّسها مس الشبق ونشوة الاستعراض ؛ ليس استعراضـا خـاملا خمول عرايا "جوجان" المـذعنات الراضـخات ، ولا سـمراوات "محمود سعيد" موفورات العافية المستسلمات في ترقب، ولا حتـى عرض سمراء من تلك التي تألق المستشـرقون فـي تصـويرها خلاسية فائرة البنيان والإحساس تأكيدا لنظرة القرن البورجـوازي الذي كان يبحث عن الشهواني خارج حدود البيت المتحفظ الـذي يحظر الإباحية ، لكنه يجعلها حقًا شرعيًا للغجريات أو الغريبـات الأخريات اللائى كن يوصفن بأنهن حاميات الدم . ليس استعراضا يماثل شيئا من هذا ، وإنما استعراض واع يستجيب لرغبة غريزية عميقة تمكنت منها ، فلم يعد بإمكانها الاكتفاء بالمونولوج الداخلي الذي ينتمي إلى أحلام اليقظة أو الخيالات الشـهوانية أو التأملات الشـاردة ؛ فعلى حلبة الرقص تتولد الشخصية من بقعة خفية فـي عمـق روحها لا يناسبها سوى فضاء مفتوح – هو هنـا سـاحة الرقص والتعرى – سيظل صامتا حتى لحظة ظهورها فيه. لـيس عرضا استهلاكيا بقدر كونه استعراضا لسلطة الجسد بشكل مباشر في مجتمع " فرجة " وليس مجتمع " تلصص " (المرقص) .

تلتصق بالبار المعدني ويتألق الجسد الخمري المدملك بمقاييسه المثالية وشعرها الأسود المهتاج كما يليق بغجرية . تمنح البـار النحاسي الذي يتوسط المساحة المخصصة للعرض حظ الاحتـواء

بفخذيها البديعتين قبل أن تقلب نفسها رأسا علـــى عقــب متشـــبثة بالبار، بيديها وساقيها بينما تنثنى وتتقلب قبــل أن تخلـــع الـــرداء القصير الأحمر الذي كانت ترتديه وتبــدو الآن بـــالتوب (top) والسروال الداخلي الذين سوف يقع عليهما غضبها بعد عدة دقائق أخرى فتخلعهما دون أن تعدل وضعها أو تهبط من على البار بينما يتألق عريها الحسي الدافئ أمام عيني دما ولحما ، وألقـــا جماليـــا معكوسا على مرايا السقف . بعد عدة دقائق ستهب نســـائم طيـــب الجسد عطرا فواحا وأنوثة باذخة ، وهمس يهدي وجنتـــي هبـــات طفيفة باردة لنفسها الرهيف المصاحب لكلماتها ويحيط بي وهـــج آسر من روح مســـتفزة بالشـــبق !! . فهـــل حققـــت أزميرالـــدا أحلامي؟!!

في هذا الملهى وغيره لم يكن هناك وجود للألمانيات ، فأغلـــب الراقصات من شرق أوروبا أو آسيا ، وهو ما ينطبق على منطقة المساحة الحمراء ، حيث تقف الفتيات أمام البيوت يدعون الزبائن بالتدليل والمداعبات وبنظرات الداعرات المجانية المبتذلة من فرط عاديتها ونمطيتها واستخفافها بالبعد الإيروتيكي أو الشعر الجسدي كما أحب أن أسميه . ولكن من قال إن الدعارة تنتظر شعرا؟! فهي هنا تدخل إطار نمطية سوق العمل والإنتاج أيا كان موضـــوعه . تعطي الزبون ما شاء من أوهام الجنس أو الحنان والعاطفة وفقـــا لرغبته وإمكانياته المادية..

هكذا يبدو الأمر بشكل نظري ، وهو ما يبدو مثاليا لكل رافضي السنتمانتالية في الأدب أو الحياة ، لكن يقيني هو أنه لا علاقة جسدية يمكن أن تكون مجردة هكذا من العاطفة ، مهما بدا الأمر كذلك ، فالعلاقة الجسدية تنشئ عاطفة ما بين طرفيها حتى لو اتفقا أن يغلقا أبوابها بمجرد ارتدائهما ما يخفي عريهما؛ لأن العاطفة تبدأ باستدعاء كل طقوس الشعر الجسدي الذي أبدعه الجسدان عبر الذاكرة ، وهذه المخيلة الشعرية هي ما تنطلق منها شرارات العاطفة التي لا يعني إخفاؤها أنها ليست موجودة . بل لعل قصص الحب الكبرى التي عاشها أصحابها دون أن يذكروا عنها شيئا كانوا قد دونوها فعلا ونغما جسديا متواصلا يبتغي الوصول إلى أقصى إمكانيات النشوة التي يوفرها لحن فعل الحب .

تأمل

تأملت الشعيرات الدموية الزرقاء ، كأنها تفريعات نهرية لمصب الفيضان ، وتمنيت أن أروي عطشي .. أن أنهل من المصب وأستقبل سيل الماء المنهمر وحدي .. ثم أعدت النظر فتراءت لي خطوطا بلون السماء رسمت خارطة لا وجود لها إلا على هذه الصفحة البيضاء المصقولة الناعمة كجزء من جغرافية العشق في الوقت الضائع ، أو علامات زمن كانت اللوحة المصقولة فيه بيضاء من غير سوء تتحمل من تفاهات العالم ما تظنه - ولعلها ما زالت - عشقا.

كنت قد غلقت الأبواب ليأس طبيعي في وجود خارطة للحب، وبسبب إحساس غامض تسرب إلى قلبي أخيرا عنوانه الاستغناء.. لكن هذه الخطوط الزرقاء بدت لي شفرة كشفت عنها صدفة من تلك المتعلقة بألعاب الزمن .

الكف الرقيقة الصغيرة البضة أطبقت على الزجاج حتى كسرته بعنف مطمور لا شواهد له أو مقدمات . أمسكت بها وفتحتها مثل زهرة رقيقة أخشى على بتلاتها ، بينما أحبس أنفاسي مترقبا شلالا من دماء، لكن المفاجأة أنها حبست تدفقها خلف سدود رقيقة تجري بها الدماء في مسارها الداخلي ، ولم أر إلا خطوطا دقيقة

رسمت على باطن الكف معالم الصدف وتصاريف الزمن.. شفرات أخرى لا قبل لي بحلها أو قراءتها رحت أطالع فيها آثاري ، كأنني قارئ كف محترف ، أقتفي ظلال آثار مستقبلية أو حتى ماضية بمزيج مشاعري عابث يتراوح بين الأمل ومنتهاه ... أو ذروته القصوى في نفس اللحظة فلا أبصر شيئا..لكن بصيرتي تكشف لي ما لا يراه سواي ..أسير مقتفيا الإشارات و العلامات كما خطت على اللوحة الناعمة ولا أدرك أنها تنتهي بقطع مفاجئ ما إن تطأه قدماي حتى أبدو كمن على شفا حفرة سحيقة أو فجوة خرافية ربما تكون بعمق الهاوية .

أقرأ الشفرات على الكف ، وأعود بذاكرتي إلى " قصر العزلة " أعلى هضاب شتوتجارت حيث شاهدت الشفرات المرسومة بلون السماء على الصفحة الجلدية البيضاء المصقولة لأول مرة ، لأكتشف أن شلالات الدماء لن تفيض لأنها تسير في المسارات المقدرة لها ، ولكن بإيقاع مختلف بدأ مع لحظة إمساكي للرقة الخالصة التي تجسدت في هيئة كف ؛ بإشارة من قلب منهك بأسئلة لا إجابة لها نقلتها من الخطوط المحفورة بآثار الزمن على تلك الكف أمامي إلى رصيدي من الأسئلة التي تنهك قلبي وتنهشه كما يفعل الخوف في الروح.الخوف الأزلي من كابوس السقوط في الهاوية !!

فرانكفورت

لم أحب فرانكفورت بكل ناطحات السحاب التي تزين سماواتها والنهر الذي يفيض في جنباتها .ثمة شيء ثقيل في روح هذه المدينة نفرني منها منذ اللحظة الأولى ، ولعل هذا ما جعلني أتنقل فيها كأنني زرتها قبل ذلك عشرات المرات ؛ لا يستثير نظري شيء ، ولا أتحمس لمشاهدة شيء، كأنها مدينة مألوفة ومضجرة في نفس الوقت . وهو ما زاد من إحساسي بالضيق ؛ لأنني رحلت من شتوتجارت دون أن أودعها وداعا يليق بها ، ولأن البرنامج المعد يجعل من فرانكفورت محطتي الأخيرة في ألمانيا ، ولولا معرض الكتاب وفعالياته التي استنفدت أغلب الوقت المتاح على مدى الأيام الخمسة التي قضيتها هناك ربما لكنت قررت العودة إلى شتوتجارت حتى آخر لحظات وجودي في هذا البلد.

أشفقت على الصديقة الكاتبة "نجوى بركات" – إحدى المشاركات في المشروع بوصفها راوية مدينة فرانكفورت – فكيف يمكن لها أن تكتب عن مدينة كهذه بكل ما يسيطر على أجوائها من شبهة المدن التجارية التي تستقطب الباحثين عن الفرص من كل صوب وحدب . عندما التقيت بها مع باقي الكتاب المشاركين في

" مداد " اكتشفت أنها بالفعل كانت تعاني ، حتى إنها كادت تقرر التوقف عن الكتابة لولا أن القائمين على المشروع أكدوا لها امتلاكها مطلق الحرية في الكتابة كيفما شاءت ، وهكذا استعادت قدرتها على كتابة يومياتها عندما قررت أن تكتب عن أسباب نفورها من المدينة.

كان هذا الموضوع مثار حديث ضاحك على العشاء الذي ضم الكثير من المشاركين في مداد والقائمين عليه مثل الكاتب "نورمان أولر" (راوي رام الله) ، و"هانز بلشنسكي" (راوي عمّان) و " خوزيه أوليفير" (راوي القاهرة) و "يوهانس إيبرت " (مدير معهد جوتة بالقاهرة) وآخرين .

في فرانكفورت شاهدت خناقة عنيفة بين شاب ألماني وآخر إفريقي في محطة المترو تحت الأرض.. عراك لفظي عنيف وصل إلى تبادل اللكمات بالأيدي والأقدام قبل أن يتدخل أخيرا أحد رجال الشرطة الذين كانوا يتابعون المشادة ولم يكونوا يتوقعون تطورها إلى هذا الحد .

المثير أن الفتى الألماني ظل محافظا على ابتسامة ساخرة ورباطة جأش يحسد عليها وأظنها كانت السبب الرئيسي لغضب الإفريقي واستفزازه ، وتصاعد ثورته العنيفة الغاضبة.أما الشرارة التي أطلقت هذا الغضب فيبدو أن أحدا لم يعرف لها سببا أو هكذا تصورت . .

تكررت مشاهد التعبير عن الغضب كثيرا ، خاصة من أشخاص ذوي بشرة سمراء يبحثون عن أي فرصة أو رجل شرطة للاحتجاج ، لكني ، مع الأسف لم أعرف أسباب كل هذا الغضب والاحتجاج ، وإن كان واضحا شبهة الاحتياج الاقتصادي، وكأن المفارقة العالمية المدهشة تريد أن تؤكد طابعها العالمي . ففي مدينة استثمارية كهذه تنتشر فيها مراكز التجارة والبنوك والبورصة يتم اجتذاب الباحثين عن الفرص ومواجهتهم بآثار الرأسمالية في نفس الوقت ، فيصبح الفقر ملازما لناطحات السحاب !

على العشاء في أحد المطاعم ذات الطابع الروسي والتي تقدم وجبات تحتوي كميات هائلة من اللحوم المطهوة والمشوية ، وعلى كل شكل ولون ، تعرفت إلى شخص خفيف الظل من أصل روسي وشقيقه ، وصديق مقرب له بريطاني الأصل ، وصديقته التي اتسمت بشعر كستنائي طويل و(بودي) ضيق قصير أسفل الجاكيت – كما هو شائع هنا– ووشم ملون بديع أسفل الظهر.

كان هناك نادلان عجوزان موفورا الصحة رغم الشيب وتغضن البشرة بتجاعيد الزمن، تتسم نبرات صوتهما الأجش بالحدة، وطريقتهما في الخدمة ذكرتني بالمقاهي الشعبية في القاهرة ؛ فكلاهما يرتدي رداء أبيض على البنطلونات السوداء، ويتحركان

بسرعة وسط الزحام العنيف الذي يميز المكان الصاخب بأعلى نبرات الصوت ودرجات الصخب التي سمعتها في ألمانيا .أما تعاملهما مع الزبائن فهو استثنائي ، فإذا تردد شخص قبل أن يتفوه بطلبه ينتقل النادل إلى طاولة أخرى فورًا منتقدا التردد والتأخير ! عندما عاد إلينا أخيرا وجه للفتاة ملاحظة ضحك لها البعض بصخب ، وابتسم البعض في استنكار بينما عاتبه الصديق الروسي بخفة ظله ، أما التعليق كما ترجم لي لاحقا فهو:

- "لماذا تتركين أردافك عارية هكذا" ؟!

ختـــام

اعتبرت يومي الأخير في شتوتجارت بمثابة الختـام العـاطفي لرحلتي إلى ألمانيا،بالرغم من أنني قضيت عدة أيام بعد ذلك فـي فرانكفورت ، والتقيت بالعديد من الكتاب العرب ومنهم المشاركون في "رواة المدن" وبعض الأصدقاء المصريين والعرب والألمـان وخاصة الصديقة الرائعة الصحفية "جوليا جير لتش" ، كما شاركت في بعض فعاليات معرض الكتاب ومنها ندوة عـن الرقابـة فـي الأدب العربي والتي نظمها "مركز الشرق الحـديث" فـي بـرلين والمركز الدولي في المعرض والتي نسـقتها الـدكتورة "سـونيا حجازي" الباحثة بمركز الشرق الحديث.

لكن الحقيقة أن زيارة فرانكفورت كانت لها أهمية كبيرة مثلهـا مثل زيارة برلين لأنها أعطتني فكرة واضحة عن مـدى التنـوع الشديد بين المدن الألمانية – لعله يميزها عـن أغلـب الأقطـار الأوروبية الأخرى – ومدى نجاح الفيدراليـة واللامركزيـة فـي تحقيق المعجزة الألمانية .

لهذا فمن المهم هنا التأكيد أن ما شاهدته هنا وما كتبت عنه في اليوميات ليس إلا وجها من وجوه ألمانيا ، وهو الوجه الذي أتـيح

لي رؤيته ، وربما تختلف انطباعــات أو رؤى أو مشــاهدات أو خبرات آخرين ممن أتيح لهم التعايش مع الشعب الألماني ، وهــو ليس إلا تأكيدًا على التنوع الشديد في هذا المجتمع .

لكن ما يهمني في مجال بحثي عن السؤال الذي طرحتــه فــي مقدمة الكتاب عن كيفية تحقق المعجزة الألمانية فقد وجدتــه فــي وجوه ثلاثة أولها اللامركزية التي أكدت لي أن حلول جانب كبير من مشاكل مصر يبدأ من النيل ؛ أي من تنمية تبدأ من الجنــوب على امتداد النهر وصولا إلى القاهرة ، وثاني هذه الوجــوه هــو مسألة الحريات التي تصل إلى حدود القداسة عند الألمان وهو مــا يؤثر في خلق المجال اللازم للإبداع والابتكار الذي لا يتحقــق إلا في مناخ من الحرية ومن الشعور بالأمان بالإضافة إلى توفير مناخ الرقابة الشعبية ، أما ثالثها فهو الإرادة التي خــرج بهــا الشــعب الألماني من الحرب مقررا التحول إلى دولة عظمى ،بينما خرجنا نحن من الحرب آملين في الاسترخاء وتجاوز آثار الحرب بأكواب " شاي العصاري" ووسائل الكسب السريع التي فتحت باب الفهلوة وما تبعه من كوارث وانهيارات وفساد .كشأن كل من لا يصــنع لنفسه طموحًا كبيرًا .

ولا أريد أن أفسد الكتاب بالسياسة ..فأختم بتحية لكل الأحبــاء في ألمانيا، ولسنجاب صغير رافق جولتي بين شــواهد الــراحلين

بإحدى المقابر في شتوتجارت، ولإطلالة شجرة الكستنة الصباحية، وللنبتة الصغيرة على النافذة التي رافقت صباحاتي وحرست نومي في بيت الفنون ، وعذوبة موسيقى "الكلارنيت" ، ومذاقات ونكهات القهوة والبيرة بأنواعها اللانهائية ، ولسـائقات المتـرو ولزرقـة العيون، وللجمال الألماني الصبوح.

شتوتجارت - القاهرة

سبتمبر ٢٠٠٤- أغسطس ٢٠٠٥

إبراهيم فرغلي (*)

يحاول إبراهيم فرغلي أن يصوغ بكلماته المسكوت عنه في العلاقة بين الرجل والمرأة ، فهو يسعى من خلال تعيين علاقات السلطة والنفوذ التقليدية إلى التشكيك فيها ، وينجح من خلال امتزاج الواقع بالخيال والصراحة الكبيرة في التصوير الجنسي في تعرية العوائق الاجتماعية ولحظات الانكسار العاطفي والاغتراب عن الذات .

ولد إبراهيم فرغلي عام ١٩٦٧ في المنصورة ، في مصر والتحق – بعد أن أتم دراسة إدارة الأعمال في جامعة المنصورة – بجريدة الأهرام حيث يعمل حالياً صحافيا في القسم الثقافي . قضى إبراهيم فرغلي جزءاً كبيراً من حياته في سلطنة عمان والإمارات ، وهي المرحلة الحياتية التي كان لها الأثر الفاصل في رهافته الأدبية .

لفت إبراهيم فرغلي الأنظار إليه داخل الأوساط الأدبية بشكل خاص عام ٢٠٠١ وذلك بصدور مجموعته القصصية الثانية أشباح

(*) التعريف كما نشر في موقع أدباء شباب عرب الذي أنجزه معهد جوتة في إطار مشروع (مداد).

الحواس عن دار ميريت . يتناول هذا الكتاب دائماً وأبداً العلاقات العاطفية بين الجنسين والتي توصف باعتبارها خبـرات فكريـة وجسدية . والكتاب عبارة عن قصص مستقلة ، إلا أن جزءا منها يعكس معايشات تتواصل وبعضها البعض ، بحيث تنشأ متتالية من الدراسات العاطفية الشائقة تحكي عن التناقض المزعوم بين الحب والشهوة .

نشر إبراهيم فرغلي قصته الأولي " أبـيض – أحمـر " عـام ١٩٩٢ في مجلة " أدب ونقـد " الأدبيـة ، ونشـر مجموعتـه القصصية الأولى باتجاه المآقي عام ١٩٩٧، ثم روايتـي كهـف الفراشات عام ١٩٩٨ وابتسامات القديسين عام ٢٠٠٤ . يصـف إبراهيم فرغلي في أحدث أعماله الأدبية العلاقة الحالية بين الأقباط والمسلمين في مصر في حيز بين الواقع والخيال ، وهو يعـرض في معالجته الأدبية لهذا الموضوع رؤى جديدة محـاولاً للحظـة واحدة إبطال بديهية العلة والمعلول .

البريد الإلكترونى : ifarghali67@hotmail.com

المحتويات

ت : 51 تاريخ استلام : 2/12/2007

"بعيداً عن الأصدقاء الذين تعرفت إليهم خلال الأيام الماضية أحاول الحفاظ على المسافة التي يفرضها إحساسي بفردية الأشخاص في المجتمعات الغربية إجمالاً ، والمجتمع الألماني بشكل خاص. أتجنب اقتحامهم بعيوني. وتعاودني رغبتي الطفولية في الحياة داخل فقاعة بللورية أعيش فيها بحيث لا يراني أحد بينما يكون بإمكاني «مشاهدة الحياة» من موضعي الخفي قادراً على تقصي تفاصيل الحياة اليومية، محاولاً فهم المسكوت عنه بقدر الإمكان، بشرط أن يكون مروري رهيفاً لا يخدش المسافة الخاصة للبشر."

هذا هو صوت الكاتب المصري إبراهيم فرغلي مدوناً يومياته على مدى شهر في مدينة شتوتجارت الألمانية يحاول الولوج إلى مفتاح الشخصية الألمانية (المهارة والإتقان والإخلاص) عبر مشاهداته للحياة اليومية للألمان، في العمل والعطلات وفي الحانات الليلية حيث يكشف الكثير من عدم صدق ما يشاع عن الألمان كما يحاول إيجاد مفاتيح للحوار بين الشرق والغرب في إطار مشروع «مداد» الذي أقامه معهد جوته لإطلاق الحوار العربي الألماني على م عديدة بحثاً عن لغة مشتركة بعيداً عن تعقيدات اختلافات والأديان والأعراق.

